سورة الأعلى

مكية، وهي عشرون آية مع البسملة

هذه السورة مكية عند الجمهور، وقد قال ابن عباس وعبد الله بن الزبير وعائشة ﵃ إنها مكية. ورُوي في صحيح البخاري وغيره عن البراء بن عازب أنه قال: أولُّ مَن هاجر من أصحاب النبي ﷺ هو مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم، فجعلا يعلّمان القرآن. ثم جاء عمار وبلال وسعد، ثم عمر بن الخطاب مع عشرين آخرين، ثم جاء النبيُّ ﷺ، ولم أرَ أهل المدينة فرحين كما رأيتهم يوم مقدم الرسول ﷺ.. فكان الأطفال والكبار إذا اجتمعوا قال بعضهم لبعض: ها قد جاء رسول الله ﷺ.. ها قد جاء رسول الله ﷺ. وكنت عندها قد حفظتُ سورة الأعلى وأمثالها من السور. (البخاري، كتاب المناقب، باب مقدم النبي ﷺ) ✪

فثبت من هنا أن هذه السورة قد نزلت قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة. وقد قال المستشرقون أيضًا إنها سورة مكيّة، حيث قال الباحث الألماني "نولدكه" أنها نزلت بعد سورة القلم فورا. أما القسيس "ويري" فيرى أن آياتها من السابعة عشرة إلى التاسعة عشرة مَدنيةٌ، إذ تتحدث عن صحف إبراهيم وموسى، ولم يعرف محمدٌ عن أحوال هذين النبيين إلا بعد اختلاطه باليهود في المدينة.

وهذا الاستدلال مثال آخر على استدلالات هذا القسيس المغرضة؛ إذ الواقع أن السور المكية أيضا تذكر إبراهيم وموسى في مواضع كثيرة. ثم إن إبراهيم ﵇

✪ نص الحديث المشار إليه هو: "عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ سَمِعْتُ الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ فَقَدِمَ بِلاَلٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ. ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ الْمَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى فِي سُوَرٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ". (المترجم)

كان الجد الأكبر لقريش، فالقول إن ما ورد في هذه السورة عن إبراهيم إنما كان نتيجة اختلاط رسول الله ﷺ باليهود في المدينة قول ساقط عقلا.

ورد عن هذه السورة في الحديث عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ وَفِي الْجُمُعَةِ بِـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾. قَالَ وَإِذَا اجْتَمَعَ الْعِيدُ وَالْجُمُعَةُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ يَقْرَأُ بِهِمَا أَيْضًا فِي الصَّلاَتَيْنِ. (مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، ومسند أحمد، حديث النعمان بن بشير).

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُوتِرُ بِـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. (أبو داود: كتاب الصلاة، والنسائي: كتاب قيام الليل، وابن ماجة: كتاب الوتر، والدارقطني، والبيهقي، والحاكم)

وعَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ هَذِهِ السُّورَةَ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾. (مسند أحمد)

وقد سُئلتْ عَائشَة رضي الله عنها: "بأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يُوتِرُ رَسُولُ اللَّه ﷺ؟ قَالَتْ: كَانَ يَقْرَأُ فِي الأُولَى بِـ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ وَفِي الثَّانِيَة بِـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وَفِي الثَّالِثَة بِـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ. (الترمذي: أبواب الوتر، وابن ماجة وأبو داود والنسائي والحاكم والبيهقي)

أما صلة هذه السورة بالتي قبلها فيقول صاحب "البحر المحيط" قد ذكر الله تعالى في السورة السابقة كيفية خلق الإنسان، بينما أكد في هذه السورة أن ربه الأعلى هو الذي خلقه هذه الخلقة.

غير أني أرى أن صلة هذه السورة بالتي قبلها هي كالآتي: لقد بيّن الله تعالى في السورة السابقة أن من خصائص الشخص الموعود للأمة أنه سيجذب في نفسه نور الرسول ﷺ ويوصله إلى الناس، بمعنى أنه يكون كالبدر في الليلة الرابعة عشرة ينشر نور الإسلام في العالم؛ ومن خصائصه أيضًا أنه يكون كالطارق، والطارق هو كوكب الصبح، وفيه إشارة إلى طلوع الشمس، وعليه فالمعنى أن الناس لن يروا رسول الله ﷺ بواسطة هذا الموعود فحسب، بل إن الإيمان به سيمكّنهم من

الاتصال الشخصي برسول الله ﷺ، حيث يجدون في نفوسهم أنواره وبركاته ﷺ. هذا هو السبب في أن هذا الموعود قد سُمي باسمين: المسيح الذي يشير إلى كونه بدرًا، والمهدي الذي يشير إلى كونه طارقًا. وهذان الاسمان يشيران إلى مهمّتين له، حيث بيّن الله تعالى أن هذا الموعود سيجذب في نفسه نور رسول الله ﷺ ويوصله إلى الناس، ثم يؤهّلهم لإنشاء صلة مباشرة مع رسول الله ﷺ. فهو بدر بحسب مهمّة، وطارق بحسب مهمّة أخرى.

وهنا ينشأ السؤال التالي: إن الرسول ﷺ نبي كامل، وقد نزل عليه الوحي الأخير والقطعي، كما أُشير إلى ذلك في السورة السابقة بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾.. أي قد نزل على هذا الرسول كلام هو قول فصل.. أي ما يقطع سائر الأقوال الأخرى.. حيث يُطلَق القول الفصْل على كلام هو الأعلى والأفضل.. كما لا تبقى بعده حاجة لأي قول آخر، ومثاله قول الله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾(ص:٢١). والمراد من تَلقِّيه ﴿فصْل الخطاب﴾ أن قراره كان نهائيا. فالمراد من القول الفصل أنه الوحي الأخير الكامل الذي لا حاجة بعده لأي وحي أو كلام آخر. وهنا ينشأ سؤال: ما دام القرآن قولاً فصلاً.. أي وحيًا أخيرًا كاملا لا حاجة بعده لأي وحي آخر، فما الداعي لبعثة هذا الموعود؟ لما كان الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ قولا فصلا وما دامت الشريعة النازلة عليه كاملة، بحيث لا تحتاج الدنيا إلى أي شريعة أخرى بعدها، فما الحاجة إلى نزول وحي آخر بعده؟ وليس هذا كل ما في الأمر، بل قد زاد الله على ذلك فقال ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.. أي أن شريعة القرآن لا يمكن أن تضعف، إذ الهزل هو الضعيف الذي لا قوة فيه ولا يصلح لشيء. كان المراد من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أن لا حاجة بعد القرآن لأي كلام؛ لأنه كلام متكامل، وحيث إن التعاليم المتكاملة أيضا يمكن أن تندثر أحيانا، فلذلك زاد الله على ذلك قوله ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.. أي أن هذا الكلام لن يضعف ولن يصبح غير صالح بحيث تساوركم الشبهات بأنه أيضا سينمحي في يوم من الأيام. لو اكتفى الله تعالى بقوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ لظلّت هذه الشبهة قائمة؛ لأن بعض أنواع الكلام

يكون قولاً فصلا، ومع ذلك يكون مؤقتًا وينمحي بعد فترة، ومثاله قول الله تعالى عن داود عليه السلام ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾، فرغم كون كلامه قرارًا نهائيًا إلا أنه قد انمحى واندثر. فلا يتضح من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ ما إذا كان القرآن الكريم قولاً فصلاً مؤقتًا أم أبديًا، بل كانت هناك إمكانية أن تنشأ في بعض القلوب الشبهة: لماذا لا نفهم من كون القرآن كلامًا أخيرًا بأنه كان كاملاً في عصره فحسب، وكان شرعًا أخيرًا في زمنه فقط، فيُنسَخ مثل الكتب السابقة، وإذا استجدّت الحاجات فسيأخذ مكانه كتاب آخر، وذلك كما يزعم البهائيون اليوم (God Passes: by Shoghi Effendi, p 25)✪ ودرءًا لهذه الشبهة قال الله تعالى في وصف القرآن الكريم: ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾.. أي لن يصاب هذا الكلام بالضعف ولن يصبح غير صالح للعمل، بل ستظل الدنيا بحاجة إليه دومًا، ولن ينمحي أبدا. فهذا الكلام ليس بالقول الفصل مؤقتا، بل ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ للأبد.

فما دام القرآن الكريم وحيًا أخيرًا وكاملاً وغيرَ ضعيف، فالسؤال الذي ينشأ هنا: ما الحاجة بعده إلى وحي آخر؟ إنه كتاب كامل ولن يضعف، فأي حاجة لأي وحي أو مدّعي وحيٍ بعده؟

وإضافةً إلى هذه الشبهة هناك تساؤل آخر، وهو أن الله تعالى قد قال في السورة السابقة إن الإنسان ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾. وكان من الممكن أن يقول الله تعالى هنا إنه خلق الإنسان من ماء فقط، كما قال في مواضع أخرى، فبإضافة ﴿دافق﴾ هنا قد بين الله تعالى أن الخَلق الظاهري للإنسان مشابه لخلقه الباطني.. أي أنه مزود بخاصية الدفق والقفز من الناحية الروحانية، وكما أنه خُلق من شيء يدفق ويقفز في

✪ قال البهاء: "من يقرأ آية من آياتي خير لـــه من أن يقرأ كتب الأولين والآخرين." (الأقدس، النسخة البغدادية ص ٣٩، والنسخة الكَنديّة ص ٨١).
وقال: "تالله لا يغنيكم اليوم كتبُ العالَم وما فيه من الصحف إلا هذا الكتاب الذي ينطق من قطب الإبداع أن لا إله إلا أنا العليم الحكيم." (الأقدس، النسخة البغدادية ص ٤٧) (المترجم)

ظاهره، كذلك يحدث في الإنسان دفق روحاني، وتأتي عليه أدوار شتّى للرقيّ، فهو يزداد وينقص باستمرار. وهذا الكلام أيضا يتعارض في الظاهر مع قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، حيث يقال: لقد أُشير بقوله تعالى ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ إلى وجود قوة الدفق في الخلق الروحاني للإنسان، فتأتي عليه أدوار من الرقي والتراجع روحانيا، بينما وصف الله القرآن بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾.. وما دام القرآن قولا فصلا، فلماذا يوجد عند الإنسان رقي وتراجع روحانيا؟ كان ينبغي بعد نزول هذا الوحي الذي هو قول فصل أن يزداد الإنسان في روحانيته دائما ولا ينقص، ولكنكم تقولون إنه كما خلُق من ماء دافق ظاهرًا، كذلك قد خُلق من ماء دافق باطنًا.. أي فيه تيار روحاني يرتفع حينا وينخفض حينًا، كالشيء القافز الذي يصعد مرة ويسقط أخرى، وأن الناس قد خُلقوا خِلقةً بحيث يتقدمون تارة ويتأخرون أخرى، ويرتفعون حينًا وينخفضون حينًا، وهكذا ففيهم طابع الدفق وموجات مختلفة. يقال لنا من ناحية إن القرآن قول فصل، وهذا يحتِّم ألا تنخفض هذه الموجات الروحانية بعد القول الفصل، فلماذا قيل ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾؟ إذا لم يوجد الدفق في حياة الإنسان فتصبح هذه الآية باطلة، وإذا وُجد فالسؤال: بأي شكل يكون هذا الدفق بعد نزول القول الفصل؟

ثم هناك سؤال ثالث ينشأ من قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وهو: قد جاء من عند الله أنبياء كثيرون منذ البداية حتى اليوم، فلماذا نزل القول الفصل الآن، ولَمْ ينـــزل من قبل على أحد منهم؟

كان السؤال الأول عن القول الفصل: ما الحاجة إلى أي موعود سماوي بعد نزول القول الفصل؟ وكان السؤال الثاني: إذا كان الناس يطيقون نزول القول الفصل فلماذا لم ينـــزل على نبي من قبل؟ ولماذا نزل الآن؟ إذًا فهناك ثلاثة أسئلة: سؤالان يتعلقان بالقول الفصل، وسؤال يتعلق بـــ ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾. وقد أجاب الله على الأسئلة الثلاثة هنا في سورة الأعلى، وأخبر أن النواميس الطبيعية تبين أن بعض الأشياء تُخلَق لمنافع مؤقتة، وبعضها لمنافع طويلة. والأشياء المخلوقة

لأهداف مؤقتة حياتُها قصيرة جدا، أما الأشياء التي تُخلَق لتبلُغ منتهى كمالها فتكون حياتها طويلة جدًّا، وأن ارتقاءها الجسماني يصل إلى مرحلة ثم يتوقف.

ولهذه السورة علاقة بالتي قبلها من حيث خلق الإنسان، فقد تحدث الله تعالى في السورة السابقة عن خلقه وارتقائه التدريجي فقال ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾.. أي أن الإنسان يخلق أولاً في الصلب، ثم تقوم الترائب بتنميته، بمعنى أن النطفة تتكون أولاً في جسم الأب، ثم تدخل في رحم الأم وتتطور هناك، ثم بعد الولادة ينمو المولود تدريجيا بتناول غذائه من ثدي أمه. أما هذه السورة فقد بيَّن الله تعالى فيها أن تطوُّره الروحاني أيضًا يتم تدريجيا مثل تطوُّره الجسدي. ولا شك أن الإنسان يُولَد بقوى معينة، إلا أن الخبرة تطوِّر عقله وتنمِّيه. إذن فكما أن خَلْق الإنسان الجسماني يتطور تدريجا، كذلك فإن خلقه الروحاني يتطور تدريجا.. ثم كما أن خلْق الفرد يتم بمراحل، كذلك خلق الأمة يتم بمراحل، ويتطور عقلها بالتدريج، ولهذا السبب ينـــزل الهدي من الله تعالى حسب كل عصر. لا شك أن الخضروات ضرورية للإنسان، إلا أن عمرها قصير، حيث تفنى بسرعة، كذلك فإن الشرائع المؤقتة كانت تُنسخ وتضيع بعد فترة. أما الأشياء التي تكون الحاجة إليها دائمة لا مؤقتة، فإنها تظل تعمل منذ خلقها. خذوا مثلا الشمس، فإنها تعمل منذ أن خُلقت كما هي حتى اليوم، وليس أن شمسا تندثر لتأخذ مكانها شمس أخرى. والحال نفسه بالنسبة إلى القمر، فإنه لا يزال باقيًا كما خُلق. فثبت أنه فيما يتعلق بالمخلوقات، فإن منها ما انمحى وباد، ولكن منها ما لم تَنَلْه يدُ الفناء، حيث يعترف علماء التطور أن بعض أنواع الخلق الناقصة انقرضتْ كليًا، ولكن هذا التغير الارتقائي توقَّف عند خلق الإنسان.

إذن، فالقول إن الشيء الذي خُلق يجب ألا يفنى قولٌ خطأ وباطل؛ إذ هناك أشياء كثيرة يخلقها الله تعالى وتكون ضرورية ونافعة، ومع ذلك تنالها يد الفناء بعد فترة، لأن الزمان يتغيّر، فلا تعود ذات فائدة عند الله تعالى.

وهنا ينشأ سؤال آخر: ما هو الدليل أن القرآن لن يُنسَخ في يوم من الأيام؟ فقد كانت التوراة ضرورية لعصرها، ومع ذلك صارت منسوخة بعد فترة، فلماذا لا

يقال عن القرآن الكريم بأنه ضروري لزمنه فقط وليس للأبد؟ وهذا السؤال يثيره البهائيون قائلين: ما دامت الشرائع السابقة قد نُسخت، فكيف يقال إن القرآن لن يُنسَخ أبدا؟ وقد أجاب الله على هذا السؤال أيضا في هذه السورة فقال تعالوا نخبركم لماذا نُسخت الشرائع السابقة ولماذا لن يُنسخ القرآن.

من الغريب أيضا أن السور التي ورد فيها ذِكر المسيح الموعود قد ذُكر فيها التسبيح بوجه خاص، مما يدلّ على أن للمسيح الموعود صلة خاصة بالتسبيح. ولا أقصد بذلك أنه حيثما ذُكر المسيح الموعود ذُكر التسبيح، بل أعني أن السور التي ذُكر فيها المسيح الموعود تتحدث عن التسبيح بوجه خاص. هناك عدة سور تتحدث عن المسيح الموعود، منها السور الأربع الماضية كما بينتُ من قبل، ولكن سور الصف والجمعة والأعلى تذكر المسيح الموعود ذكرًا خاصًّا، حيث تبدأ سورة الصف بقوله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وتستهلّ سورة الجمعة بقوله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.. وتبدأ سورة الأعلى بقوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. وقد وردت فيها الأفعال الثلاثة بصدد التسبيح؛ فـ ﴿سَبَّحَ﴾ فعلٌ ماض، و﴿يُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع وهو للحال والاستقبال، و﴿سَبِّحْ﴾ فعل أمر وهو خاص بالاستقبال، إذ إننا حين نأمر أحدًا بشيء فإنه لا يكون يعمل به عندها وإنما يبدأ العمل به بعدما نأمره. وبذكر هذه الأفعال المتعلقة بالأزمنة الثلاثة بشأن التسبيح قد بيّن الله تعالى أن كل هذا التسبيح المتعلق بالأزمنة الثلاثة سوف يتم في عصر هذا الموعود. وهذا موضوع مستقل لا مجال للخوض فيه هنا، وإنما اكتفيتُ بالإشارة إليه وبينتُ أن الله تعالى قد استعمل في هذه السور الثلاث الأفعال الثلاثة، وهكذا وعد بتكميل التسبيح على يد المسيح الموعود عليه السلام.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

سَبِّحْ: أمرٌ من سَبَّحَ اللهَ: أي نزَّههَ. (الأقرب)

رَبِّكَ: الربُّ: مَن يربّي ويطوّر ويوصل إلى الكمال تدريجيًا. فكلمة (الرب) متضمنة لمعنى خلق الشيء ثم تطويره إلى الكمال بالتدريج.

التفسير: يمكن تفسير قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ بطريقين: سَبِّحِ اسمَ ربِّك الذي هو أعلى، أو سَبِّحِ الاسمَ الأعلى لربّك، ففي الحالة الأولى يكون "أعلى" صفةً للرب، والمراد: سَبِّحِ اسمَ ربِّك الذي ربوبيتُه أعلى وأرفع؛ وفي الحالة الثانية يكون "أعلى" صفةً للاسم، والمراد: ارفَعْ في الدنيا الاسمَ الأعلى لربِّك.

الواقع أن كثيرين يشاركون الله ﷻ في مجال الربوبية، فكلٌّ من الوالدين – مثلاً– ربٌّ في مجاله الخاص إذ يربي ولده، ولذلك قد استُعمل لفظ الرب في القرآن الكريم لغير الله أيضا، مُقرًّا أن الناس يشتركون مع الله تعالى في صفة الربوبية فيما يتعلق بالاسم، فالأب ربٌّ بهذا المعنى والأم أيضا إذ يقومان بتربية أولادهما، والأستاذ أيضا ربّ، والقائد الدينيّ ربّ، والمحسن ربّ، لأنهم كلهم يقومون بربوبية الآخرين في مجالاتهم. ولما كان هؤلاء يشتركون مع الله تعالى في صفة الربوبية، فلم يصف الله نفسه هنا بالرب فقط، بل قال ﴿رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. موضحًا أن الآخرين يشتركون في هذه الصفة من ناحية الاسم بلا شك، ولكن ربّك هو الأعلى، والأرباب الآخرون أدنى درجةً بكثير وربوبيتهم ناقصة، لأن ربوبية الله هي الكاملة من كل النواحي. إذًا فبقوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قد أمر الله نبيَّه أن يردّ على كل ما يُثار ضد ربوبيته تعالى من اعتراض، لأن ربوبية الآخرين الناقصة تؤدي إلى شبهات وأفكار خاطئة عند الناس، فينسبونها إلى الله، ظانين أنه تعالى أيضا يقوم بمثل هذه الربوبية الناقصة، فعليك بدفعها وإزالتها. خُذوا مثلاً الأستاذ، فإنه مُرَبٍّ،

ولكن تربيته تؤدي أحيانًا إلى كثير من العيوب بدلاً من أن تكون نافعة. وبالمثل إن الوالدين أيضًا من الأرباب بلا شك، حيث يُطعمان أولادهما، ويسقيانهم ويكسوانهم ويسدّان كل حاجة لهم، ولكنهما يُفسدان أخلاقَهم أحيانا بتدليلهم الزائد، فربوبيتهما تكون ناقصة أحيانا وتؤدي إلى كثير من العيوب بدلاً من أن تكون نافعة. ولكن الله تعالى يقول هنا لرسوله إن ربوبيتنا أسمى من أي نقص، فأَخْبِرِ الناسَ أنه مع أن البشر يشتركون مع الله تعالى في اسم الربوبية، إلا أن الرب الذي أعرضُه على العالم هو الرب الأعلى، إذ لا يوجد في ربوبيته نقص ولا عيب مطلقًا؛ فإنه تعالى إذا أعطى تعليمًا فلا بد أن يكون خاليًا من أي نقص، وإذا هيّأ أسبابًا فلا بد أن يهيئ ما هو ضروري، ومن المستحيل أن تكون ربوبيته ناقصة.. أي أن يهيئ ما ليس ضروريا ولا يهيئ ما هو ضروري. بينما لا تخلو تربية الوالديْن مثلاً من هذا العيب، إذ لا يعرفان أحيانا النافع من الضارّ، فمثلاً يُطعمان الطفل في وقت لا يحتاج فيه إلى الطعام، أو لا يطعمانه ما هو بحاجة إليه. والواقع أن الأولاد يمرضون لهذا السبب في معظم الأحيان، إذ يقع آباؤهم في مثل هذه الأخطاء في العناية بهم. فأحيانًا يكون الوليد بحاجة إلى لبن أمه، ولكنها لا ترضعه، فيضعف وينحف، وأحيانًا لا يكون بحاجة إلى لبنها، ولكنها ترضعه لو بكى قليلا، فتصاب معدته بأنواع الأمراض. في بعض الأحيان يبلغ الطفل من العمر بحيث يكون بحاجة إلى غذاء صلب، ولكن أمه لا تزال ترضعه لبنها، فتضعف هي، كما أن ولدها لا يقدر على هضم الغذاء الصلب. إن اللبن ليس غذاء مناسبا للطفل في كل سنّ، بل إنه مناسب إلى عمر معين، ولو استمرّت الأم في إرضاعه بعدها ضعفت معدتُه، فلم يقدر على هضم الغذاء الصلب لاعتياده الغذاءَ السائل؛ فما إن يدخل الغذاء الصلب في بطنه إلا ويصاب بالإسهال. فإننا نرى أن الكبار أيضًا إذا مرضوا وتركوا الغذاء الصلب مكتفين بتناول الحليب والأرز مثلا أسبوعًا أو أسبوعين، ثم بدأوا بتناول الخبز اشتكوا من سوء الهضم، ذلك لأن معدتهم تضعف باستعمال الغذاء اللين. فلا شك أن اللبن غذاء جيد، ولكن الله تعالى قد جعله غذاء مناسبا للوليد الذي عمره سنة ونصف أو سنتان، أما بعدها فلو أُرضع اللبن فقط -كما تفعل بعض الأمهات

اللواتي يُفرِطن في تدليل أولادهن حيث يرضعنهم ثلاث سنوات أو خمسًا أو سبعًا أحيانًا- أصابه المرض، وذلك أولاً لأن حليب أُمِّه يكون قد فسد، وثانيًا لأن معدته لم تتدرب على هضم الأغذية الصلبة، فيصاب الولد بضعف المعدة الدائم. ومع ذلك نجد بعض الأمهات ترضع ولدها سنوات عديدة لحبها المفرط، وإذا سألتها عن ذلك قالت: ماذا أفعل، إنه لا يتركني، ويبكي إذا لم أرضعه، والنتيجة أن الأم تصاب بالضعف، كما أن الوليد يكون ضعيفا. ولذلك يقول الله تعالى إن ربوبية الأرباب الآخرين ناقصة، إذ لا يعطون الإنسان ما يحتاجه عند الضرورة، ويعطونه إياه حين لا يكون بحاجة إليه، ولكن الله تعالى ليس هكذا، بل إن ربوبيته منـــزهة عن كل نقص وعيب.

لقد ذكرتُ من قبل أن هناك اعتراضا يثار حول قول الله تعالى في السورة السابقة ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فيقال لماذا لم ينـــزل الله القول الفصل منذ البداية، وقد جاء الرد على ذلك في هذه الآية، حيث أوضح الله تعالى أنه الربّ، فيراعي الحاجةَ والتدرجَ دائمًا. إذا كانت الأمُّ -وهي مظهر ناقص للربوبية- لا تُطعم وليدها الخبزَ فور ولادته، بل ترضعه لبنها فقط، فكيف نعطي الإنسان غذاءً روحانيا غيرَ مناسب؟ قد تخطئ الأمّ، فتطعم وليدها كبابًا أو قطعة لحم، فيمرض ويموت، ولكن الله تعالى يعلن هنا أني لست عاطفيًا كالأم فأُنزلَ في أول يوم الشرعَ الكامل والقولَ الفصل، فيضُرّ عقلَ الإنسان بدلاً من أن ينفعه، فإني لست ربًّا فحسب، بل أنا الربّ الأعلى. فمثلا لم يكن الناس في زمن آدم يعرفون ما هي السرقة، إذ كانوا قلّةً وكانت الخيرات وفيرةً، فما كانوا يفتقرون إلى شيء منها، وبالتالي ما كان لأحد أن يفكر في السرقة، لأن المرء يرغب في السرقة عند حاجته إلى شيء، وحين تكون حاجته أكثر مما عنده. ولكن لم يكن في زمن آدم أي قلة في الخيرات كان عدد العائلات في العالم محدودا، وكان كل شيء متوفرا بكثرة. فلو نزل القرآن الكريم في ذلك العصر، وقال لهم لا تسرقوا، لسأل بعضهم بعضا: ما هي السرقة يا ترى؟ ولو أُخبروا أن السرقة أن تأخذ مال غيرك في غيابه بدون إذنه، وتسد به حاجتك، لبدأت السرقة في زمنه، مع أن الواقع أن حالات السرقة قد وقعت بعد آدم بآلاف

السنوات. أو لو قيل للناس عندها: لا تقعوا في الفاحشة، لأخذ الناس في السؤال عن الفاحشة يومها، ولبدأ الضعفاء منهم بممارستها من أجل التجربة بعد العلم بها، ثم وجدوا المتعة فيها وروّجوا لها.

الواقع أن الإحساس بالفاحشة أيضًا يأتي تدريجيا؛ في أول الأمر يخاف الإنسان من ارتكابها، مدركًا أن عمله هذا سيُعتبر عملا قبيحا، ولكنه حين يرى أن فلانا قد ارتكب هذه الجريمة، ومع ذلك لم يحصل به شيء، فإنه يجد في قلبه الجرأة على ارتكابها. ذلك لأن الناس لا يستطيعون أن يروا العقاب الروحاني، ولا يوجد الإيمان بيوم الآخرة حقًّا إلا في قلة منهم، فلا يتجنبون الفاحشة إلا خوفًا من نتائجها الوخيمة. ولكنهم عندما يرون أن فلانًا ارتكب الفاحشة و لم يُصبْه ضرر، فيرغبون في ممارستها من أجل التجربة. فلو أن الله تعالى أمر الناس في زمن آدم عليه السلام بعدم ارتكاب الفاحشة لسأل بعضهم بعضا: ما هي الفاحشة يا ترى؟ وإذا علموا بها انتشرت هذه المعصية في ضعاف الإيمان منهم.

ثم خذوا القتل مثلا؛ إذ يتضح من القرآن أن فكرة القتل خطرتْ ببال أبناء آدم في وقت من الأوقات، ولا يعني ذلك أنها خطرت ببال أبناء آدم المباشِرين، بل المراد أنها نشأت في نسله بعد مدة، حيث رمى أحدهم صاحبه بحجر في ثورة الغضب فمات، ومن هنا علِم الناس أن القتل أيضا وسيلة من وسائل الانتقام، وإلا لم يكن القتل موجودًا في الدنيا من قبل، بل يوجد حتى اليوم شعوب لا تعرف القتل. فلو نزل الشرع الكامل في ذلك العصر الذي لم يخطر ببال أحد فيه قتل أو سرقة أو فاحشة.. وقيل لهم لا تقتلوا ولا تسرقوا ولا تزنوا، لَوُضع عندها الأساس لكثير من الجرائم التي لم توجد إلا بعد آلاف السنين. أما لو لم ينـــزل شيء عن هذه الأمور لصار الشرع ناقصًا بالنسبة للمستقبل الذي كان انتشار هذه المعاصي مقدَّرًا فيه، و لم يقدر الشرع الناقص على سدّ حاجات الناس، فمسّت الحاجة إلى شريعة جديدة.

يتضح من القرآن الكريم أن بعض الجرائم نشأت في زمن شعيب، وبعضها في زمن لوط، وبعضها في زمن أنبياء آخرين، ولو تحدّث الله عنها في زمن آدم لتوجه

الناس إلى ارتكابها منذ آلاف السنين من اليوم، مما أدى إلى إعاقة رقيهم، لأن مَثَله كمَثَل الأم التي تُطعِم رضيعها كبابًا أو قطعة خبز، فيموت، لأن عمره يتطلب أن يُرضع اللبن فقط.

فلذلك يقول الله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي لو قال الناس: لِمَ لَمْ ينـــزل القول الفصل في بداية الإنسانية، فقُلْ لهم إن ربي أعلى؛ فإذا كان الأرباب الناقصون يطعمون شيئا واحدا لكل المواليد بغض النظر عن أعمارهم، فإن الرب الأعلى الكامل لا يعطي إلا عند الحاجة الحقيقية، ولا يعطي إلا ما هو مناسب، ولذلك فإنه لم يُنـــزل القول الفصل في البداية، لأن القول الفصل يعني كتابًا كاملاً جامعا يحتوي بيان كل أنواع الضرورات بحيث لا يبقى بعده حاجة إلى وحي شرعي آخر. أما لو نزلت شريعة جامعة كهذه في البداية لوُضِعَ الأساس لكل الجرائم والمعاصي عند بداية الخلق الإنساني ولشَملَهم الفناء. لا شك أن الشرائع الأخرى أيضا تنهى عن السيئات، ولكن لم تَنْهَ عنها أية شريعة منها إلا بعد أن اخترعها الشياطين من الناس بمرور الزمن، وإلا فإنما تأسست أول شريعة على قوانين الفطرة فقط، ثم شيئا فشيئا تم التحول من قوانين الفطرة إلى شريعة الوحي، فكلما خالف الإنسانُ قانونًا من الفطرة نزل وحي الله تعالى بصدده، لا أن وحي الله تعالى قد تحدث عن سيئة قبل إيجادها من قِبَل الناس، إذ لو نزل الشرع الكامل في البداية ونهى عن كل أنواع السيئات، لوُضع حينها الأساسُ لكثير من الجرائم التي وُجدت فيما بعد في الواقع، ولهلكت الدنيا أخلاقيا وروحانيا.

ثم إن مِن الربوبية ما يكون مشوبًا بغرض، كأن يحسن المرء إلى الآخر تملقًا أو رياء، ولكن ربوبية الله ليست هكذا. وأحيانًا يقوم المرء بعمل في غير محله، ولكن ربوبية الله منـــزهة عن هذا العيب أيضًا. وهذا هو الموضوع الذي بيّنه الله تعالى في هذه الآية، فأوضح أن ربوبية ربك، يا محمد، منـــزّهة عن أي عيب.

إذن، فبرغم أن الآخرين يشتركون في بعض صفات الله تعالى اشتراكا لفظيا ناقصا، إلا أن الواقع أن صفاته تعالى مغايرةٌ تمامًا لصفات غيره. فمثلا يشترك الناس مع الله تعالى في صفته الرب والرحيم والعالِم والمالِك، ولكنه اشتراك بالاسم وفي

الظاهر فقط، لا في الحقيقة. وإنما الغرض من هذا الاشتراك اللفظي البحت أن الإنسان لا يقدر على فهم صفات الله تعالى بدون ذلك، فأعطاه الله اسمًا يشبه صفةً من صفاته تعالى، وإلا فالواقع أنه شتّانَ ثم شتّان بين صفات الله وصفات الإنسان. إنما اختار الله تعالى هذا الأسلوب لتقريب المعنى إلى أفهام الناس، وإلا فهيهات أن تكون ربوبية العبد مثل ربوبية الله، ورحيميةُ العبد مثل رحيمية الله، ومالكيةُ العبد مثل مالكية الله. إذا سُمي الله والعبدُ باسم واحد نظرًا إلى بعض الصفات، فإنما ذلك ليفهم العبد صفات الله تعالى. وإذا كنا نسمي الله مالكًا والإنسان مالكًا، فليس معناه إلا أنه يوجد في الإنسان تشابُهٌ ناقص بصفة الله المالكية، وليس أن الإنسان مالكٌ كمالكية الله تعالى، لأن صفة العبد ناقصة، وصفة الله كاملة.

باختصار، يقول الله تعالى هنا ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي قد وقع الناسُ في أنواع الشبهات حول صفات الله تعالى نتيجة بعض أفعال العباد الناقصة وبسبب اشتراكهم في أسماء الله الصفاتية، فيظنون أن أفعال الله أيضا ناقصة كأفعال العباد، فعليك، يا محمد، دَرْءَ كل شبهة وردَّ كل اعتراض حول ربوبية الله تعالى. إنه لموضوع واسع لطيف وعلى المرء أن لا ينخدع بوجود هذا الاشتراك اللفظي الظاهري بين صفات الله تعالى وصفات العباد.

وهناك معنى آخر لهذه الآية وذلك باعتبار ﴿اسم﴾ هنا بمعنى أسماء، وهو: ربك الذي ربوبيته تفوق ربوبية الآخرين قد أحسنَ إليك أكثر مما أحسن إلى أحد؛ وما دام قد خصّك بين الناس بهذا الإحسان العظيم، فمن واجبك الآن أن تردّ على كل من يثير أي اعتراض على ذات البارئ تعالى. وحيث إن الله تعالى قد أحسن إليك إحسانًا لا مثيل له، فأنت الأوْلى بإزالة شكوك الناس حول ذات البارئ تعالى؛ ذلك لأن الذي قد رأى الله تعالى هو الذي يقدر على ردّ كل المطاعن على صفاته تعالى، أما الذي لم يشاهد في ذاته تجلّي صفاته تعالى فأنّى له دفع هذه المطاعن، لذلك يقول الله تعالى لنبيّه إن ربك الأعلى قد تولّى ربوبيتك بنفسه، وقد مَنَّ عليك بما لم يمنّ به على أحد من العالمين، فمن واجبك الآن أن تردّ على كل المطاعن التي تثار عن أي صفة من صفات الله تعالى، وأن تبين للناس أن الصفات الإلهية منـــزهة عن

كل نقص وعيب. والواقع أننا لو تدبرنا في سوانح الرسول ﷺ لوجدنا أن الله تعالى قد خصّه بمعاملة لم يخص بها أحدا من العالمين، ولذلك ما كان بوسع أحد إدراك صفات الله تعالى كما أدركها الرسول ﷺ. خذوا مثلاً صفة الله المالك.. فقد تجلّى الله على رسوله بمالكيته بما لم يتجلّ بها على أبي جهل. كان أبو جهل يعترف بمالكية الله اعترافًا تقليديا كأناس آخرين، أما محمد رسول الله ﷺ فقد جعله الله مالكًا بالفعل ليعرف معنى المالك حق المعرفة، لأن المالك مَن تكون كل الأشياء في قبضته وتحت تصرفه، فيعطي من يشاء، ويحرم من يشاء، وينـــزع ممن يشاء. لقد نزع الله تعالى الحُكمَ من العرب الكافرين ومنحه محمدًا رسول الله ﷺ، فكيف يمكن أن يكون أحد أكثر إدراكًا لصفة الله المالك منه ﷺ؟ كان الآخرون أيضًا يؤمنون أن الله مالك، ولكن إيمانهم كان بناء على ما يردده الآخرون بأن الله مالك، ولكن الله تعالى قد جعل محمدا ﷺ نفسه مالكًا، وتجلّى عليه بصفة مالكيته مباشرة، فأنّى للآخرين أن يتيسر لهم إدراك صفة الله المالك كما تيسر له ﷺ؟ ثم خُذوا مثلا صفة الله الرب. يولد الناس ويتربّون تحت ظلّ آبائهم وأمهاتهم، ويتلقّون العلوم من أساتذتهم، فيظنون أن آباءهم أطعموهم وكسوهم وأنفقوا عليهم، وأن أساتذتهم علّموهم. لا شك أنهم يعترفون بلسانهم أن الله ربهم، ولكن لا يكون عندهم دليل على ذلك، وإنما يردّدون ما سمعوه. يقول لهم المشايخ إن الله هو الرزاق وهو يعطي المال ويهب العلم، فتأخذهم حيرة إذ لا يرون ذلك في الظاهر، فيقولون إن ما رأينا هو أن آباءنا هم أطعمونا وليس الله، وأن آباءنا هم علّمونا وليس الله.. فحين يقال لهم إن الله هو الرب، يقولون نعم إن الله هو ربنا، في حين أن قلوبهم لا تكون مستيقنة بما يقولون، وتظل عيونهم قاصرة عن رؤية صفة الله الرب؛ ومن أجل ذلك يقول الله تعالى هنا لرسوله ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي أن الله تعالى قد تجلّى على الآخرين بربوبية عادية، ولكنه قد تجلى عليك بربوبيته الخاصة العليا.. فكأن ربوبية الله نوعان: ربوبية عادية تظهر من خلال الآخرين، وربوبية عليا تظهر من الله مباشرة، ولذلك يقول الله تعالى لرسوله: من واجبك الآن أن تردّ على المطاعن التي تثار على ربوبيتنا. لقد أطعمنا الناس بواسطة آبائهم، وعلّمناهم من خلال

أساتذتهم، أما أنت فتَولّينا بنفسنا تربيتك، ورزقناك من عندنا، وعلّمناك من لدنا، وتجلينا عليك بصفاتنا كلها تجليًا مباشرا؛ فعليك أن تردّ الآن على اعتراضات الناس حول صفاتنا كلها، وتزيل شكوكهم ووساوسهم وشبهاتهم بشأنها.

أمّا كيف وَهَب الله رسولَه ﷺ أنواعَ العلوم والمعارف، وكيف تجلّى عليه بصفاته مباشرة، فيمكن أن تقدر ذلك بما يلي: يتعلّم الناس العلوم من الأساتذة، ولكن الله تعالى علّم رسوله ﷺ شتى العلوم مباشرة بلا واسطة. ثم إن الناس يكابدون مختلف المشاقّ والصعاب في سبيل تحصيل العلم، ولكن الرسول ﷺ لم يكابد أي عناء ولا مشقة في سبيل العلم. إن الذي يريد قراءة التوراة يتعلم العبرية مرة، واليونانية مرة أخرى، ويتصفح الصحف القديمة تارة، ويقضي سنوات وسنوات في هذا الجدّ والتعب، ومع ذلك لا يتيسر له إلا علم ناقص، وفي كثير من الأحيان يظهر خطؤه فيما بعد. أما الرسول ﷺ فكان ينام بالليل وهو لا يعلم شيئًا مما ورد في التوراة من أحكام، وما أتى على بني إسرائيل من أحداث، وما كلّم الله به موسى من كلام، فيكشف الله عليه كل هذه الأخبار والأحوال وهو نائم على سريره في غفلة عنها. وكانت كل هذه العلوم صحيحة بحيث لا يزال صِدْقها ينكشف حتى اليوم. أما المعلومات التي جمعها الناس بعد تعبٍ وكدٍّ لسنوات كثيرة، والتي كانت مسجلة في كتب التاريخ، فيثبت بطلانها. فيا ترى مَن ذا الذي يستطيع أن يشهد على أن الله عليم كما يمكن أن يشهد على ذلك نبينا ﷺ الذي تلقّى هذه الربوبية الإلهية المباشرة؟ لا شك أن الناس يؤمنون بأن الله عليم، ولكن ليس لأنهم قد شاهدوا واختبروا بأنفسهم كونه عليمًا، وإنما لأن آباءهم وأساتذتهم أخبروهم بذلك، أما محمد رسول الله ﷺ فكان ينام ليلا بغير علم، ويستيقظ في الصباح وقد مُلئ صدره من كل أنواع العلوم والمعارف، فأنّى للآخرين أن يشهدوا مثله على صفة الله العليم؟

ثم خُذوا صفة الله الرزاق مثلا. إن الناس يروْن أن الإنسان يكدح بنفسه ويكسب قوته بنفسه، ويهيئ أسباب المعاش لنفسه ولعياله بنفسه، فلا تظهر صفة الله الرزاق أمامهم ظهورا مباشرا، فيكون إيمانهم بصفة الله الرزاق سماعيًا فقط خاليًا

من بركات المشاهدة والخبرة الشخصية. لا شك أنهم يؤمنون بأن الله رزاق إيمانا تقليديا، ولكن قلوبهم تكون خالية تماما من أي يقين بأنه تعالى رزاق. أما الرسول ﷺ فقد تجلت عليه صفة الله الرزاق مباشرة بلا واسطة. وكلّ ما رُزق من رزق كان بلا كدّ ولا جهد. عندما كان ﷺ طفلا صغيرا ألقى الله في قلوب أقاربه حبّه بشكل غير عادي؛ حتى ورد في التاريخ أن مُرضِعه حليمة السعدية التي تولت تربيته قد أحبَّته حبًّا شديدا، وذلك لأن الله تعالى جعَله ﷺ سببًا لرزقها. كان أهلها فقراء، فأزال الله فقرهم بمجيئه إلى بيتهم وفتح عليهم أبواب فضله، فأحبوه حبًّا شديدًا. وحيث إن الله تعالى أنعم عليها بفضله الخاص بسببه ﷺ فكانت تودّ أن يبقى في بيتها أطول فترة ممكنة لكي تتمتع فترة أطول بما نزل في بيتها من بركات بسببه ﷺ، فلذلك لما بلغ سنتين أخذتْه حليمة إلى والدته ﷺ غير أنها رجعتْ به إلى بيتها ثانية بإصرار شديد. كان من عادة أهل مكة أن يبعثوا مواليدهم الصغار مع النساء إلى القرى المجاورة في البادية لكي ينموا ويترعرعوا جيدًا بالعيش في الهواء الطلق، ولكي تتحسَّن لغتهم بالعيش بين البدو، لأنّ البدو أفصحُ لسانًا من أهل الحضر. وكانت نساء القرى المجاورة يرغبن في تربية هؤلاء الأولاد في بيوتهن، لأن آباءهم كانوا يعطونهن مبلغًا مُغْرِيًا، فيعِشْن به في سعة. فجاءت حليمة إلى مكة لكي تأخذ من بعض أهلها ولدًا معها، ولكنها تروي أن أهل كل بيت ذهبت إليه رفضوا أن يبعثوا معها ولدهم برؤية هيئتها الرثّة وحالتها البائسة قائلين: أتريدين أن نبعث معك ولدنا ليموت عندك جوعًا؟ فلم تزل تتردد على البيوت طوال اليوم، ولكن لم تجد أي طفل تأخذه معها. وفي الجانب الآخر ظلّت والدة الرسول ﷺ تتوسل إلى كل واحدة من هؤلاء البدويات أن تأخذ ولدها معها، ولكن كل واحدة منهن قالت لوالدته ﷺ: أنت امرأة فقيرة، فماذا عسى أن تعطيني من جزاء إذا أخذت ولدك معي؟ إذًا ففي ذلك اليوم ظلت بدوية تبحث عن ولد في مكة لتأخذه معها، وظلت امرأة أخرى تبحث طوال اليوم عن مرضع بدوية لتأخذ ولدها معها. فمن جهة تلقّتْ مرضعٌ في ذلك اليوم الرفضَ التام من كل بيت بحجة فقرها وعدم قدرتها على تربية ولدهم، ومن جهة أخرى رُفِضَ في ذلك اليوم طفلٌ بحجة أن أُمَّه أرملة فقيرة

لا تملك ما تدفعه للمرضع. لقد رفضت كل مرضع من تلك البدويات وليد هذه الأرملة قائلة: لو أخذتُ ولدك فلا آمل في أي مكافأة منك. وتقول حليمة: فلما حلّ المساء واقتربت الشمس من المغيب، أخذتني الحيرة والخجل وقلت في نفسي: لقد انقضى اليوم ولم يُعطِني أحد ولده بسبب فقري، وفيما أنا في ذلك حتى بلغني أن في بيت فلان طفلا لم تأخذه أي مرضع، فاذهبي إلى أهله وخُذيه منهم. فقلتُ في نفسي: لأنْ أرجع بهذا الولد خير من أن أرجع خاوية الوفاض وأتعرض للعار والخجل. فذهبتُ إلى هذا البيت وأخذت محمدًا ﷺ معي. وعندما عدتُ إلى بيتي رأيتُ ما حيّرني؛ كانت غنمي لا تدرّ لبنًا من شدة القحط والجفاف، ولم يكن في بيتنا أي حليب منذ فترة طويلة، ولكن لما وصلتُ البيت بمحمد ﷺ درّت ضروع غنمي وامتلأت. كنتُ قلقةً بأني لم آت بهذا الولد إلى بيتي إلا خوفا من العار والخجل أمام زميلاتي، فماذا عسى أن تعطيني والدته من مال؟ ولكن لما رأيت ضروع غنمي قد امتلأت، قلت إن هذا الوليد قد أتى لنا برزق، ومنذ ذلك اليوم تعلَّق قلبي به، فربّيته بحبّ وشفقة لم أكنّهما لأولادي. (سيرة ابن هشام: ولادة رسول الله ﷺ).

فترى أن مَن يأتيه طعامه بواسطة الآخرين هو الآخر يؤمن بأن الله ربه، ولكن ليس لأنه شاهد تجليًا لربوبية الله، إنما لأن الناس يقولون ذلك، أما الرسول ﷺ فإن الله تعالى قد تجلّى عليه بربوبيته وهو طفل لا يعي ما هو الربّ، ثم لما كبُر أخبرته مرضعه أنها لم تطعمه شيئا، بل بسببه هو جاءها الرزق والطعام. فكيف يمكن للآخرين -والحال هذه- أن يفهموا معنى الرب كما فهمه الرسول ﷺ؟ ألا لا يفهم ربوبية الله تعالى بشكل صحيح إلا من رأى تجليًّا مباشرًا لربوبيته تعالى. لا شك أن هذه الصفة الربانية تؤثِّر فيمن يشاهدها بواسطة الآخرين، ولكن شتّان بين هذا التأثير وبين التأثير المباشر لهذه الصفة الربانية. إننا نعطي الفقير شيئًا بأيدينا حينًا، وحينًا آخر نبعث إليه أحدا بهذا الشيء، ولا شك أن هذا الشيء سيصل إلى الفقير في الحالتين، ولكن تلك المحبة التي تتولد في قلب الفقير نحونا في حالة تلقِّيه هذا الشيء أو المال من يدنا مباشرة لا يمكن أن تتولد في حالة تلقِّيه بدون أن يدري من

آتاه إياه. لا شك أن من يعطي الصدقة خفيةً يثاب أكثر، ولكن لا يتولد في هذه الحالة حبُّ المتصدق في قلب الفقير كما ينبغي. أما إذا أعطى الصدقةَ للفقير مباشرة، فإنه ينال ثوابا أقل، ولكن حبّه سيتولد في قلب الفقير ولا بد أن يدعو له. وبالمثل فإن الذين أطعمهم الله بواسطة آبائهم فإنهم لا يتمتعون بربوبية الله كما تمتع رسول الله ﷺ بربوبية الله له مباشرة.

ثم من صفات الله المحيي، والناس يؤمنون أيضا بكونه تعالى محييًا إيمانا تقليديا حيث يعترفون: نعم، نؤمن أن الله سيحيينا بعد الموت، ولكن الرسول ﷺ قد شاهد في حياته في الدنيا هذه الصفة الإلهية. لقد بُعث ﷺ في قوم قد ماتوا موتًا لم يسبق له نظير في الدنيا، فأحياهم الله تعالى على يده ﷺ وجعلهم فاتحي العالم وملوكه. إن المرضى يريدون الشفاء من مرضهم، ولكن المريض الذي وُضع في يد الرسول ﷺ للعلاج كان لا يريد الشفاء، بل كان يريد أن يموت ولا يبقى له أثر، ولكن هذا المريض نفسه الذي كان يؤثر الموت على الحياة والذي كان يرى شفاءه وحياته ضربًا من المستحيل.. قد شُفِي بيده ﷺ وعاد إلى الحياة، بل أحيا مئات الآلاف من الموتى الآخرين. كان أهل مكة الذين وُلد الرسول ﷺ بينهم تجارا عاديين، ولم يكن عندهم حُكم ولا نظام، ولم يكن لهم عز ولا شهرة. كانوا يعيشون خاملي الذكر في حالة يُرثى لها، ولكن انظر كيف عادوا إلى الحياة بيد الرسول ﷺ وانتشروا في العالم متحمسين كالمجانين، وقلبوا عروش دول كبيرة كالحدأة تنقضّ على صيدها وتأخذه بقبضتها في لمح البصر. كان العرب أمة حقيرة في العالم بحيث إن المسؤولين الصغار من الدول المجاورة كانوا ينهرونهم ويزجرونهم، ولكنهم لما صاروا خداما للرسول ﷺ نالوا من القوة ما جعلهم يصطدمون بالدول الكبيرة حتى مزقوا إمبراطوريتي قيصر وكسرى فخرّت أمامهم الملوك الجبابرة خاضعين، وحضروا عندهم مسالمين. هذا هو مثال الإحياء الذي أراه الله تعالى على يد رسولنا الكريم ﷺ.

أما الآخرون فيسمعون من غيرهم عن الإحياء الإلهي فيقولون: نعم، إن الله يحيي الموتى. يسمع الطفل من أبيه أن الله هو المحيي فيؤمن به، ويسمع التلميذ من أستاذه أن الله هو المحيي فيصدّقه، ولكن الذي قد اختبر إحياء الله للموتى، ورأى بأم عينه

كيف أحيا الله تعالى قومًا كانوا موتى منذ قرون، ولم يريدوا العودة إلى الحياة، وجعَلهم فاتحي العالم وملوكه.. فإنه سيكشف للعالم صفة الله الإحياء، بما لا يقدر عليه غيره.

ثم من صفات الله صفة الشافي، ولكن الناس يجهلون حقيقتها أيضا. يقولون بلسانهم إن الله شافٍ، ولكنهم لم يروْا نموذجًا مباشرًا لصفة شفائه تعالى. كل ما يعلمون أنهم تناولوا حبات "هَرَر"✪، فشُفوا من الإمساك، ولذلك يظل عقلهم منحصرًا في الماديات فقط، ولا تتوجه قلوبهم إلى الله العظيم الذي يدير هذا الكون الهائل. ينتقل ذهنهم إلى الدواء المسهل، ولا ينتقل إلى الله الشافي! أما الرسول ﷺ فقد تجلى الله عليه بصفته الشافي تجليًا مباشرا. لقد دعا ﷺ عليًّا رضي الله عنه قبل فتح خيبر ليسلّمه راية الجيش، ولكن كان في عينيه رمد، وكانتا متورّمتين من شدة الألم، فأخذ الرسول ﷺ لعابه ووضع على عينيه، فشُفي في الحال. (سيرة ابن هشام: ذكر المسير إلى خيبر). كان الله تعالى قد بشّر النبي ﷺ بفتح خيبر على يد علي رضي الله عنه، فكان يعلم أنه ما دام هذا هو القرار الإلهي فمن المحال أن لا يشفي عيني علي، فأخرج لعابه ووضع على عينيه فشفاه الله فورًا. ومن مرّ بمثل هذه التجربة هو وحده الذي يمكن أن يخبر الناس عن صفة الله الشافي حقيقةً، أما غيره فإنما يقول: نعم، سمعتُ أن الله شافٍ، ولكني لم أشاهد أي تجلٍّ لصفة شفائه.

باختصار، لقد شاهد النبي ﷺ تجليات صفات الله تعالى كلها مباشرة بلا واسطة، أما الناس فقد شاهدوها بطريق غير مباشر، فلا يستطيعون إزالة العيوب ودحض الشبهات التي ينسبها البعض إلى صفاته تعالى، أما محمد ﷺ فيقدر على دحضها بكل جدارة وروعة، ولذلك يقول الله تعالى لرسوله ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ إذ قد تجلتْ عليه ربوبية الله العليا، وأما الآخرون فظهرت عليهم ربوبيته العادية، ولذلك كانت رؤيتهم لنقش صفاته تعالى ضبابيةً، أما أنت فقد تجلّينا عليك بكل صفاتنا، فشاهدتَ بأم عينك أن لا عيب في صفاتنا ولا نقص؛ فمن واجبك

✪ شجرة هندية يُستعمل ثمرها كمُسهِلٍ يشفي من الإمساك. (المترجم)

الآن أن تدحض بكل قوة كلّ ما يثار ضد شريعة الله من مطاعن، وكل ما يُعزى إلى صفاته من عيوب؛ لأن من الناس من يقول إن الله قد أشرك الأصنام في أُلوهيّته، ومنهم من يقول إن لله ولدا، ومنهم من يقول إن لله بنات، ومنهم من يقول إن الله لا يكلّم العباد الآن، ومنهم من يقول ليس لله دخلٌ في إدارة الكون وإنما يُدار نتيجة الأسباب المادية فقط. فهناك شتى الاعتراضات التي يثيرها الناس حول ذات البارئ، وإنهم معذورون في إثارتها إذ لم يروا الله تعالى ولم يشاهدوا صفاته وجلاله وقدرته، ولكنك -يا محمد- قد رأيتنا وشاهدتَنا، لأننا قد تجلَّينا عليك كربٍّ أعلى، فالآن من واجبك أن تدرأ هذه العيوب عنا، وتكشف عظمتنا على العالم.

هذا المفهوم الذي بينته الآن هو في حالة اعتبار ﴿اسم﴾ بمعنى أسماء الله كلها، وليس اسما واحدا.

وفي حالة اعتبار الاسم بمعنى الأسماء ثمة مفهوم آخر لقوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، وبيانه أن الله تعالى يقول لنبيه إنه تعالى أرفع شأنًا وأكبر عظمة من الجميع، غير أنه ربٌّ.. أي يطوّر الشيء من حاله الأدنى إلى الأعلى، وبحسب هذه الصفة أو القانون استعمَل في الصحف السابقة كلامًا مجازيًا في حق أنبيائه، ولكن ربوبيته تعالى للإنسان قد بلغت الآن كمالها، وحان الوقت لكشف الحجاب عن الحقيقة، لذا فعليك بإزالة كل الأخطاء التي وقع فيها الناس حول صفات الله لورود الاستعارة والمجاز في الكتب السابقة بكثرة. والواقع أننا لو قارَنّا القرآن الكريم بالصحف السابقة لتبيّنَ لنا فورًا أنها لا تَعرِض الربَّ الأعلى؛ أعني أن العقل الإنساني لم يكن قد تطوَّرَ عند نزولها بل كان في نمائه وارتقائه، فلم يكنْ قادرًا على استيعاب دقائق المسائل، فكُثُر التشبيه والاستعارة في تلك الصحف، فمثلاً اعتبرتْ بعثةَ نبي مجيئًا لله تارةً، وسمّتْ الله أبًا تارة ثانية، وسمّتْ أحباءه أبناءً له ﷻ تارة ثالثة. ذلك لأن هؤلاء القوم ما كانوا قادرين على استيعاب الحقيقة من دون هذا الكلام المجازي؛ ولكن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ لقد تجلَّينا عليك كربك الأعلى..

أي تجلى عليك ربُّك منـــزَّهًا عن أي تشبيه واستعارة، فقُمْ وادفَعْ عنّا كلَّ ما يثار ضدنا من اعتراض نتيجة كثرة الاستعارات في الكتب السابقة.

يتضح من دراسة الصحف السابقة أن الله تعالى قد دُعي فيها أبًا حينا، وأُمًّا حينا آخر، وسُمي بعض الأنبياء ابنَ الله، وبعضهم ابن الله البكْر؛ ولم يكن معنى ذلك أن لله أبناء، أو أنه كالأب والأم في الواقع، وإنما كان كلامًا على سبيل التشبيه والمجاز، أُريدَ به بيان حقيقة أن النبي يُبعَث من عند الله تعالى لكشف صفاته تعالى كما يخرج الابن من أبيه ويظهر صفاته. وكان هذا الكلام المجازي ضروريًا عندها، لأن العقل الإنساني كان لا يزال في طور نمائه وارتقائه التدريجي، ولم يكن قادرًا بعد على إدراك ما في أحكام الشرع من أسرار أو ما في الوحي من حِكَمٍ دقيقة. والتشبيه إنما يُستخدم حين لا يزال الشيء في طور ارتقائه من الأدنى إلى الأعلى، أما إذا بلغ رفعته المنشودة فلا مجال للتشبيه والاستعارة، وهذا ما قد أشار الله تعالى إليه هنا بقوله ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي يا محمد، قد تجلّينا عليك الآن كالرب الأعلى، وقد شرحنا لك كل الاستعارات والتشبيهات السابقة، وبيّنّا لك ما هو المراد من تسمية الله أبًا ومن تسمية النبي ابنَ الله البكر، وما هو التوحيد، وما هو الشرك وأسبابه وأنواعه وغيرها من المسائل. والسابقون لم يكونوا قادرين مثلك على تصحيح هذه الأخطاء، لأننا لم نتجلَّ على الأنبياء السابقين كالرب الأعلى – هذا لا يعني أن الله تعالى لم يكن الرب الأعلى حينئذ، وإنما المراد أن الربوبية لم تظهر عندها ظهورًا أعلى للأسباب المذكورة– أما الآن فقد تجلّت عليك ربوبية الله بكمالها التام واكتملت الشريعة من كل النواحي، وبيّنَا حكمة كل حُكم وجمالَ كل تعليم، فواجبك الآن أن تدحض كل تلك المطاعنَ التي أُثيرت حول ذات البارئ تعالى وصفاته وشريعته وغيرها.

ولو اعتبرنا لفظ ﴿الأَعْلَى﴾ في قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ صفةً للاسم فالمعنى: سَبِّحِ الاسمَ الأعلى لربك. وهذا لا يعني أن بعض أسماء الله أدنى، بل المراد أن صفات الله كلها تتجلى الآن بتجلٍّ أعلى، فمن واجبك أن تعرض على الناس أعلى ظهور لكل صفة من صفات الله، وتدفع أي اعتراض يثار ضد أي

صفة من صفاته لكي لا يبقى لأي من هذه المطاعن أثرٌ، ويظهر جلال الله في العالم أروع ظهور.

وجدير بالتذكر هنا أنه قبل نزول قول الله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ كان رسول الله ﷺ وصحابته يدعون في الركوع في الصلاة: اللهم لك ركعت، وفي السجود: اللهم لك سجدت، ولكن لما نزلت هذه الآية قال الرسول ﷺ: "اجعلوها في سجودكم" (أبو داود: كتاب الصلاة، باب ما يُستفتح به الصلاة من الدعاء)، ولما نزل قول الله تعالى ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال ﷺ: اجعلوها في ركوعكم (مسند أحمد، حديث عقبة بن عامر الجهني). إذاً فإن الله تعالى بنفسه علّمنا كيف نسبّح في الركوع وكيف نسبّح في السجود، وعملاً بأمر الله تعالى نقول: "سبحان ربي العظيم" في الركوع و"سبحان ربي الأعلى" في السجود.

ثم إن قوله تعالى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ يتضمن الإشارة إلى أن معرفة الأعلى ليس بمقدور الأدنى، فلا يليق بالإنسان أن يخمّن من عنده كيف يمكن أن تتجلى صفات الله تعالى، وماذا يتنافى مع صفاته، وماذا يتفق معها. هذا ليس من اختصاص الإنسان، وليس بمقدرته، إنما من اختصاص الله تعالى وحده أن يُطلِع العبادَ على هذه الأمور بوحيه؛ وبالتالي لا بد من نزول الوحي من عند الله تعالى، فالذين لا يعترفون بضرورة الوحي فكأنما يريدون أن يحيطوا بذات الله تعالى بعقلهم، وهذا محال؛ إذ ليس بوسع الإنسان أن يعرف شيئا واحدا عن وجود الله تعالى وصفاته ما لم يخبره الله تعالى بنفسه عن ذلك بوحيه، فلذلك لا بد من الوحي. بدون وحي الله تعالى لا يقدر الإنسان على إدراك صفات الله، ولا يعرف سبل التقرب إليه، ولذلك قال الله تعالى هنا لرسوله ﷺ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾: أي يا مَن نزل عليك وحينا، من واجبك كشف صفاتنا للناس، لأنهم لا يقدرون على إدراكها بعقلهم فقط.

ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾

شرح الكلمات:

سوّى: سوَّى الشيءَ تسويةً: جعَله سَوِيًّا، تقول: سوَّيتُ المعوجَّ فما استوى. وسوّاه: صنَعه مستويًا. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ يعني أولاً: الذي خلَقه وجعله بدون عيب، وثانيًا: الذي خلقه ثم أزال كل عِوَجٍ حصل فيه فيما بعد.

التفسير: يقول الله تعالى إنه قد خلق الإنسان بحيث زوّده بكل القوى والكفاءات الضرورية لرقيه، ولذلك قيل في التوراة: "فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ" (التكوين١: ٢٧). فالمراد من تسوية الإنسان أنه تعالى قد زوّده بكفاءة الرقي والاعتدال فزوده بكل قوة ضرورية لذلك، كما هيّأ له كل ما يحتاج إليه من أسباب خارجية. هذا هو معنى تسويته أي خَلْقه بلا عيب، وإلا فليس المراد من خلقه بلا عيب أن يتصف بصفة الألوهية مثل الله تعالى. كلا، إنما المراد أنه ليس في خلقة الإنسان ما هو لغو وعبث. خُذوا مثلا العين، فإنها كانت عبثًا لو لم يخلق الله تعالى إزاءها ضوء الشمس، فمن منّة الله على الإنسان أنه خلق له العين من ناحية، ومن ناحية أخرى جعل للشمس ضوءًا ترى به عينُه. وهذا هو الحال بالنسبة لجميع أعضاء الإنسان، فكل ما فيه قد خُلق لهدف محدد، ومنفعة معينة. هناك عضوان فقط في جسم الإنسان كان الأطباء يظنون أنهما خُلقا عبثًا ولا جدوى منهما، وهما شحمة الأذن، والزائدة الدودية. كان الأطباء في الماضي يظنون أن هناك أعضاء أخرى لا فائدة فيها، ولكن انكشفت عليهم ضرورتها شيئا فشيئا. فلم يكن هناك إلا عضوان ظنوهما بلا نفع، ولكن قبل حوالي ٤٠ أو ٥٠ سنة قد علموا بفائدة الزائدة الدودية، ذلك بعد أن قام طبيب من فرنسا بتجربة لمعرفة فائدتها. فإنه أخذ ١٢ قردا، وقطع الزائدة الدودية من ستة قرود، وتركها عند الستة الأخرى، ثم بدأ يربيها كلها تربية متساوية، وأخذ يلاحظ كل تغير يطرأ على أحد من المجموعتين، وبعد فترة وجد أن القرود التي أُزيلتْ زائدتها الدودية قد قلّت المناعة عندها،

فأخذت تصاب بأمراض و لم يعُد ينفعها الغذاء كما ينبغي، أما المجموعة الأخرى التي لم تُستأصَلْ زائدتها الدودية، فكانت قوية كالسابق. (The Text Book of Anatomy, 2nd. Edition p.387)

لقد ثبت من ذلك أن الزائدة الدودية –التي اعتُبرت في الماضي بلا فائدة– هي وثيقة الصلة بصحة الجسم، وإذا أُزيلت من إنسان قلّتْ مناعته. ولكن يجب أن لا يُفهم من ذلك أن مناعته تقلّ مقارنة مع الآخرين، إنما المراد أنه يصبح أقلَّ مناعةً من ذي قبل؛ إذ من الممكن أن يكون هذا الشخص أكثر مناعة من شخص لم تُجرَ له هذه العملية ولكن المناعة عنده ضعيفة لسبب آخر.

إذن، قد تبيّنَ من ذلك أنه إذا أُزيلت الزائدة الدودية من إنسان ضعُفت مقاومته، فهذه التجربة التي أجراها الطبيب الفرنسي تؤكد أن الزائدة الدودية ذات صلة وثيقة بمناعة الإنسان وصحته، وقد تظهر فوائدها الأخرى في المستقبل. على أية حال، لقد ثبت بذلك أن الله تعالى لم يخلق أي شيء عبثًا.

والعضو الثاني الذي كان يُعتبر بلا فائدة هو شحمة الأذن، ولكنهم قد علموا الآن أنها ليست عبثًا، بل لها تأثير لطيف في السمع؛ شأنها شأن تلك القطعة الصغيرة من القماش أو الورق التي يربطها الأولاد في مؤخرة الطائرة الورقية، فإنها تبدو بلا فائدة، ولكنها في الواقع تساعد على الطيران كثيرا. وبالمثل فإن شحمة الأذن تزيد في جمالها، كما أن لها صلة وثيقة في التقاط الصوت. هناك أعضاء في الجسم الإنساني قد خلقها الله تعالى من أجل الجمال، ومنها شحمة الأذن التي لو قطعت لفقدت الأذن جمالها، كما أن لها فائدة أخرى كبيرة وهي أنها للينها تجمّع موجة الصوت فتزيد من وضوحه. هذه فائدة بيّنة لشحمة الأذن، وقد تظهر لها فوائد أخرى مستقبلا. ومن أجل ذلك يقول الله تعالى إنه خلق الإنسان وجعله بلا عيْب؛ إذ كل عضو من أعضائه يحقق غرضًا، و لم يخلق الله أي شيء إلا لحكمة وفائدة.

ثم إن من معاني قوله تعالى ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أنه خلق الإنسان معتدل القوى من كل النواحي، فإذا زوّده الله بقوة الغضب خلَق إزاءها قوة الرفق، وإذا خلَق فيه قوة الانتقام خلَق حيالها قوةَ العفو، وإذا خلَق فيه الشهوة خلَق إزاءها العفة. وهذه

القوى المتضادة في الظاهر تعمل معًا على رقيه الأخلاقي والروحاني، ولولاها لما دُعِيَ خَلوقًا، فمثلاً لا يسمَّى فاقد الشهوة عفيفًا، ولا يُعتبر فاقد الغضب عَفُوًّا، ومَن ليس فيه رِفق لا يُعتبر غَيورا، ذلك أن الأخلاق الحقيقية إنما تظهر من إنسان يتزود بالقوتين. لقد قال المسيح الموعود عليه السلام موضحًا هذا الأمر: إذا كان الشخص عِنّينًا مثلاً، فلا يسمَّى عفيفًا، وإذا كان كفيفًا فلا يقال إنه لا يرتكب خيانة الأعين، إذ لا بصر عنده أصلاً، لو كان عنده بصرٌ، ثم لم يقع في خيانة الأعين فلا شك أنه يستحق الثناء، ولكن ما دام كفيفا فلا يمكن أن يسمى عفيف البصر. فثبت أن الإنسان لا يُعتبر خلوقًا ما لم توجد فيه القوى بنوعيْها، وما لم يحافظ على التوازن بينها. إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أن الله تعالى قد جعل الإنسان معتدل القوى، لقد جعل حوله قوى متضادة، ثم زوّده بكفاءة أن يقف بين هذه القوى المتضادة باتزان واعتدال مثل كَفّتَي الميزان. فكأن الله تعالى يقول: إذا كنا قد خلقنا في الإنسان قوة الشهوة خلقنا فيه إزاءها قوة العفة، وإذا خلقنا فيه النجاسة زوّدناه إزاءها بقوة الطهارة أيضا، وإذا خلقنا فيه النشاط جعلنا إزاءه الكسل أيضا، وإذا جعلنا له أنواع الأكل والشرب، فقد جعلنا فيه قوة الصوم أيضا.. أي القدرة على الجوع عند الحاجة. باختصار قد خلق الله في الإنسان القوى بنوعيها، ثم خلَق فيه الكفاءة بأن يستعملها بشكل سليم صحيح ليصبح إنسانًا خَلوقا وروحانيا. باختصار، قد زوّد الله تعالى الإنسانَ بكل القوى الضرورية من جهة، ومن جهة أخرى قد خلق فيه كفاءة الرقي ليرتقي باستعمالها المناسب أخلاقيا ودينيا.

ومن معاني التسوية إصلاح العوج.. وعليه فقوله تعالى ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ يعني أنه خلق الإنسان، ثم هيّأ أسباب إصلاحه كلما طرأ عليه فساد. فما دام الله يرعى الإنسان بحيث يهيئ الأسباب لإصلاح كل فساد يطرأ عليه، فكيف يقال أنه يترك العباد ليقعوا في الفساد ولا يهيئ الأسباب لإزالته.

ترى كيف أجاب الله تعالى بكل روعة على السؤال الناشئ في السورة السابقة. لقد سبق أن بينتُ أن اعتراضا كان قد نشأ حول قوله تعالى في السورة السابقة

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، وهو أنه ما دام الرسول ﷺ قد أتى بالقول الفصل ونزل عليه الشرع الكامل لهداية الناس، فما الداعي لبعثة موعود بعده؟ فأجاب الله هنا على ذلك وقال يجب أن تفكّروا في صفات الله تعالى. ترون أن الله تعالى قد خلق علاج الأمراض التي تهاجم جسم الإنسان في الدنيا، فكلما أصابه مرض أو طرأ عليه فساد، هيّأ الله لإزالة فساده أسبابًا من عنده وسوّاه. إذا هاجمه مرض جسدي هيّأ الله الأسباب لصحة جسده، وكلما هاجمه مرض روحاني أتى الله بعلاج لصحة روحه. فما دامت هذه السنة الإلهية مستمرة منذ القدم، فكيف يمكن الآن أن يطرأ على الإنسان عوج ولا يهيئ الأسباب لإزالته؟ لو ثبت أن عوجًا حصل في الناس ولم يُزِلْه الله تعالى، لكان هذا عيبًا بحق البارئ سبحانه واعتراضًا على صفاته. إذا كان فساد الدنيا ممكنا فلا بد من إزالته، لأن من سنة الله تعالى أنه كلما فسد الإنسان هيّأ الأسباب لهدايته. أما لو قلتم لا حاجة لإزالة هذه المفاسد بعد نزول القول الفصل، فكأنكم تصمون الله تعالى بالعيب. فقولكم أن لا حاجة لأي وحي بعد نزول القول الفصل قولٌ باطل لا أساس له، لأنه لو حصل عيب في الإنسان فلا بد أن يزيله الله تعالى، وإلا سيقال إنه تعالى لم يصلح هذا الفساد.

غير أنه لا بد أن يكون العلاج بحسب الفساد؛ فمثلا إذا كان أحد لا يستطيع تناول الطعام لفساد معدته، فيجب أن نعالج معدته حتى يقدر على تناول الطعام، لا أن نغطّيه ببطانية مثلا. فلو تطرق الفساد إلى عمل الإنسان، فالعلاج المناسب أن يتم إصلاح عمله، وليس أن يُنـــزل الله تعالى له شريعة جديدة، أما إذا كان الفساد قد تسرب إلى الشريعة، فالعلاج الصحيح هو إصلاحها. من الضروري أن يتم العلاج بحسب المرض، فلو تطرق الفساد إلى الكتاب فيجب علاج الكتاب، ولو تطرق الفساد إلى الناس فيجب علاجهم. أما إذا كان الناس على ما يرام، ولكن القانون أصبح ناقصا، فيجب عندها إصلاحه وتعديله، أما إذا كان القانون صحيحا، ولكن الفساد تطرق إلى الناس فيجب إصلاحهم لا تغيير القانون.

باختصار، لقد ردّ الله تعالى بقوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ على الاعتراض الناشئ على قوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ في السورة السابقة، فأوضح أنه كلما تطرق الفساد إلى

الإنسان أصلحه الله دائما، فلا بد أن يعمل ﷻ على إزالة كل فساد يطرأ على الناس في المستقبل أيضًا.

وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

قَدَّرَ: قدَّرَه على الشيء: جعَله قادرا. وقدّر الشيءَ بالشيء: قاسه به وجعَله على مقداره. وقدّر فلانٌ: روّى وفكّر في تسوية أمره. (الأقرب)

ونظرًا إلى هذه المعاني الثلاثة للتقدير يمكن تفسير الآية بثلاثة مفاهيم؛ فأوّلاً: يقال قدّر يعني قّدره على الشيء، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾: قدّر الإنسانَ على نيل الهدى والترقي.

وثانيًا: يقال قدّر فلانا: روّى وفكّر في تسوية أمره، وعليه فالمراد أنه كلما حصل في الإنسان فساد دبَّر الله تعالى لإزالته، ولم يكن هذا التدبير عابرا، بل كان مخططًا بالنظر إلى نوعية الخراب وحجم المرض ليكون العلاج ناجعًا. الحقيقة أن العلاج إنما يكون ناجعًا إذا كان بحسب المرض؛ فمثلا هناك شخص مصاب بحمّى الملاريا البسيطة، فسيعطيه الطبيب مقدارًا قليلاً من "الكونين"، ولكن هناك شخص آخر مصاب بالملاريا الشديدة، فيعطيه الطبيب مقدارا كبيرًا من "الكونين" يصيب أذنيه بالجفاف فيصاب بالصمم أحيانًا؛ ومن الجهل أن يقال لماذا أُعطيَ الأول مقدارًا قليلا من "الكونين" والآخرُ مقدارا كبيرا، ذلك لأن العلاج بحسب المرض. وبالمثل فإن الله تعالى يهيئ أسباب الإصلاح بحسب الفساد دومًا، لذا فقوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ يعني أنه يقدّر المرض أولاً ويرى نوعيته وشدّته، ثم يحدد العلاج بحسب ذلك.

وثالثا: يقال قدّر الشيءَ بالشيء: قاسه به وجعله على مقداره، وعليه فسيعني قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أنه قدّر مرض الإنسان وبحسب مرضه وصف العلاج، وهيّأ الأسباب لإصلاحه.

فهناك معنيان الأول: أنه أنزل العلاج بحسب نوعية المرض، والثاني أنه قدّر المرض وبحسب مقداره وصف العلاج.

التفسير: هذه الآية عميقة الصلة بالآية السابقة نظرًا إلى المعنيين لـــ ﴿قَدَّرَ﴾، فهي تسلسلٌ لنفس الموضوع المذكور في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾. لقد فسّرنا التسوية بمفهومين: أوّلهما أن الله تعالى جعل الإنسان معتدل القوى وصالحا للرقي، وثانيا: كلما طرأ عليه فساد عمل الله على إزالته. ونظرًا إلى هذين المفهومين فإن قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أيضا يفسَّر بمعنيين: أوّلهما لأن الإنسان مزوَّد بكفاءة الرقي، وجُعِلَ معتدلَ القوى وكاملها، فقدّر الله قواه وهيّأ الأسباب الملائمة لها ليمضي قُدُمًا في رقيّه. وثانيهما أنه كلما حصل فيه فساد وعوج أرسل الله له الهدى بقدر عوجه فأصلحه؛ إذ لو كان الهدى أقلّ من حاجته لضلّ، ولو كان أكثرَ من حاجته لقُصِمَ ظهرُه واحتار في أمره، ولذلك اختار الله الطريق السليم لإصلاحه وأنزل الهدى بقدر ضرورته وحاجته. وكأن الله تعالى يقول إنه أنزل العلاج بحسب نوعية المرض وبحسب مقداره أيضا. وقد سبق تفصيل ذلك حيث قلنا إنه لو نزلت الأحكام أكثر من حاجة الناس لأهلكتهم، وقد ضربتُ لذلك مثالاً بأنه قبل زمن آدم عليه السلام لم تكنْ كل المساوئ قد خطرت بالعقل الإنساني، كما لم تكن قد ارتكبت بعد، فلو تحدثَ عنها الوحي الذي نزل عندئذ لكثرت المعاصي ولم يتمّ أي إصلاح؛ فليس من الحكمة ذِكْرُ علاج السيئة قبل وجودها، لذلك لم ينـــزل الكتاب الكامل إلا حين اخترع شياطين الإنس أنواع السيئات والأخلاق الذميمة. ثم إنه لا يسهل استيعاب التعاليم السامية إلا بعد ارتقاء العقل، ولذلك كان لزامًا أن لا ينـــزل عندها إلا الكتاب الكامل بحسب حاجات عصره، وأما الكتاب الكامل لحاجات الأزمان كلها فلا ينـــزل إلا بعد ارتقاء العقل الإنساني. باختصار، حيث إن الإنسان قد خُلق كامل القوى فكان لزامًا أن يجد تعليمًا كاملا أبديّا في وقت من الأوقات، ولكنه حين كان في طور التطور العقلي، فكان لزامًا أن يُعطى عندها تعليما متوافقًا مع درجة ارتقاء عقله.. وهو كامل بحسبها. أما إذا لم يُعطَ تعليما

كاملا أبديا فلا يكون قد تلقّى جوابًا كاملا لقواه الكاملة، وإذا لم يُعطَ تعليما كاملا بحسب درجة ارتقائه لما ارتقى منازل التطور، ولذُبل من ثقل أعباء الشريعة قبل أن يبلغ درجة الكمال. فبما أن الله تعالى قد خلق الإنسان كاملَ القوى من ناحية، ومن ناحية أخرى جعله عرضةً للعيوب والأمراض ليجتهد ويستحق الثواب، فكان حريًا بالله تعالى أن يلاحظ الأمريْن: فيهيئ له الهدى بأسلوبٍ مَرِنٍ ارتقائي. وهذا ما فعل بالضبط؛ فخلَق الإنسان، وهيّأ له أسباب الإصلاح بحسب نوعية عوجه كلما طرأ عليه عِوَجٌ.

باختصار، لهذه الآية مفهومان نظرا إلى معنيَي الآية السابقة، أولهما: أن الله تعالى لم يسمح بضياع ما في الإنسان من كفاءة لبلوغ الكمال، بل هيّأ الأسباب لتطوُّرها دومًا، وثانيًا كلما طرأ عليه مرض هيّأ له العلاج بحسب المرض. فأحد المفهومين يشير إلى رقيه، وثانيهما يشير إلى إزالة مرضه.

والدليل على صحة المعنى الذي ذكرتُه هو أن الله تعالى ذكر قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ قبل قوله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، ولو كان المعنى على عكس ما أقول فكان ينبغي أن يذكر ﴿قَدَّرَ﴾ قبلَ ﴿خَلَقَ﴾، لأن تقدير الشيء يسبق خَلْقه وصنعه، ولا معنى لتقدير الشيء بعد خَلْقه، لأن تقدير قوى الشيء الجسمانية أو الروحانية يجب أن يتمّ قبل خَلقه لا بعده. ولا شك أن التقدير الذي يتمّ بعد خَلْق الشيء إنما يتعلق باستعمال قواه في محلّها المناسب؛ فالمعنى أنه بقدر ما كان يمكن أن يُظهر الإنسان من قواه فعلاً في وقت من الأوقات، قدّر الله حالته وأنزل الهدى بحسبها في ذلك الوقت، أو بقدر ما وقع الإنسان في السيئة فعلاً أنزل الله علاجه بحسبها، وعندما انكشفت له السيئات كلية وأصبح قادرًا على إظهار الحسنات بصورة تامة، أنزل الله له تعليمه الكامل.

إن الذين يقولون إن قوله تعالى ﴿قَدَّرَ﴾ هنا يعني تقدير خَلْق الإنسان يجب أن يفكّروا أن تقدير خَلق الشيء يكون قبل صنعه لا بعده؛ فمثلا: إذا أردتَ خَبْز ربع كيلوغرام من الدقيق، فإنك تحدّد مقدار الدقيق المراد خَبْزُه قبل أن تبدأ بعملية الخبز.. وليس أن تبدأ الخَبْز ثم تفكِّر أن مقدار الدقيق يجب أن يكون ربع كيلوغرام.

كلا بل إن مثل هذا التقدير يتم قبل خلق الشيء وصنعه لا بعدَه. كذلك لو كان التقدير هنا متعلقا بالخَلق لذُكر قبل ذكر الخلق، ولكن ليس الأمر هكذا، بل قال الله هنا أوّلاً ﴿خَلَقَ فسَوَّى﴾، ثم قال ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾. فثبت أن التقدير هنا ليس ما يكون قبل خلق الشيء، بل هو من نوع آخر. فمن التقدير ما يتعلق بقوى الشيء، ومن التقدير ما يتعلق بإظهارها. وتقدير قوى الشيء – سواء كانت جسمانية أو روحانية – يتم قبل خَلقه دوما، أما التقدير المتعلق بإظهار قواه فيمكن أن يتم بعد خَلْقه في أي وقت. وقد تحدث الله تعالى هنا عن تقديره المتعلق بإظهار قوى الإنسان، وبيّن أنه بقدر ما يمكن أن يُظهر الإنسان من قواه بالفعل، قدّر الله حالته عندها وأنزل الهدى بحسبها في ذلك الوقت. ولهذه الحكمة لم يُنـــزِل للبشر في البداية إلا الشرائع التي كانت كاملة في زمنها فقط، ثم في الأخير أنزل الشريعة الكاملة الأبدية. لقد نزلت الشرائع الكاملة بالنسبة إلى زمنها فقط عندما لم يكن الإنسان قد أظهر قواه كاملة بالفعل، بل كان يرتقي في منازل تطوُّره العقلي، أو لم تكن السيئات من كل نوع قد ظهرت منه ظهورًا كاملا، أما الشريعة الكاملة الأبدية فقد أُعطيَها الإنسان عندما ظهرت منه السيئات ظهورا كاملا من جهة، ومن جهة أخرى أصبح قابلا للتحلي بالحسنات بشكل كامل.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أنه مما لا شك فيه أن الله تعالى قد خلق الإنسان معتدل القوى بريئا من النقائص، ولكنه في الوقت نفسه قد قيّده بشتى الحدود والقيود، ولم يبح له استعمال قواه بلا ضوابط؛ فمثلا قد زوّد الله الإنسان بقوة شرب الماء من ناحية، ولكنه من ناحية أخرى قيّده بحدٍّ وأوضح له أنه يمكنك شرب مائك أنت، لا ماء الآخرين. ومثال الماء هذا قد لا يستوعبه الناس عندنا جيدًا لكثرة المياه في بلادنا، ولكن أهل الجزيرة العربية يفهمونه جيدا لشُحِّ الماء عندهم، إذ يجلبونه أحيانًا من عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً، فأصبح للماء عندهم أهمية وقيمة لا توجد عندنا. ومثاله الآخر أن الله تعالى قد أجاز لنا أكل اللحم من جهة، ومن جهة أخرى نهانا عن أكل لحم الخنـــزير والميت وغير المذبوح؛ وهكذا

فإن الله تعالى قد قيّدَنا بشتى القيود والحدود، فلا يجوز للإنسان أن يفعل ما يشاء ويأكل ما يشاء. وهذا أيضًا من معاني التقدير المذكور في قوله تعالى: ﴿قَدَّرَ﴾.

ثم هناك تقدير رباني لحالات الإنسان وظروفه. لا شك أن الإنسان يريد أن يفعل ما يشاء، ولكن الله تعالى قد خلَقه في ظروف لا يقدر فيها فعل ما يشاء. فمثلا مَن أراد أن يتبرع بألف جنيه فيمكنه أن يتبرع بها، ولكن ليس عند كل واحد هذا القدر من المال حتى يحقق رغبته هذه. يمكنه أن ينفق الملايين والبلايين في عالَم الخيال والتصور، ولكن على صعيد الواقع لا يستطيع كل إنسان أن يتبرع بالآلاف والملايين. ولذلك قال الله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾.. أي أننا قد جعلنا حول كل إنسان حدًّا من الأوضاع لا يقدر على تجاوزها، وهو ما يسمى بمحيط الإنسان وظرفه. فكأن الله تعالى يقول هنا إن الإنسان يمشي بحسب محيطه، حيث لم يخلق الله تعالى للإنسان قواه وكفاءاته، بل خلق لظهورها محيطا، فتظهر بحسبه دائما. فكلما أنزل الله تعالى هداية للإنسان أنزله نظرا إلى محيطه. وهذا المحيط يكون ماديا أو دينيا أيضًا. لا شك أن المحيط المادي يكون للحيوان والإنسان جميعا، ولكن المحيط الديني.. أي الشريعة.. لا يكون إلا للإنسان وحده. ثم إن الشريعة أيضًا تكون بحسب المحيط المادي للناس، فمثلاً أُمرنا بأداء الصلاة قيامًا، وإن لم نستطع فجلوسًا، وإن لم نستطع فاستلقاء، وكل ذلك نظرًا إلى محيط الإنسان وظرفه. فإذا كان المحيط يتطلب تعليما كاملا فسينـــزل التعليم الكامل، وإذا كان لا يقتضي تعليما كاملا فلا ينـــزل التعليم الكامل، والاعتراض على ذلك إنما هو اعتراض على النواميس الطبيعية. فما دامت الأم لا تطعم وليدها كبابًا، بل ترضعه الحليب، فكيف يُتوقع من الرب الأعلى أن يُنـــزل للإنسان تعليمًا لا يناسبه؟ وهذا ما يبينه الله تعالى بقوله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾.. أي أن التعليم الكامل هو ما يكون ملائمًا للظرف والمحيط. فمثلاً لو أمرنا الله تعالى أن لا يصلي كل واحد إلا قائمًا، فماذا يفعل المريض الذي لا يقوى على القيام؟ ولكن الله تعالى أجاز للمريض منا أن يصلّي جالسا، وإن لم يستطع فمستلقيا. وهذا يعني أن الله تعالى قد أنزل أحكامه نظرًا إلى شتى الظروف المادية للناس، لا بغضّ النظر عنها. فثبت أن التعليم الكامل ما يطابق

قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾. والمثال الآخر للتعاليم المطابقة للظروف المادية للناس أن الله تعالى أمرنا في الإسلام بالزكاة، ولكنه قد صرّح أيضا أن هذا الحُكم ليس للجميع، بل هو لمن عنده مقدارٌ معين من المال. ولولا هذا الاستثناء لم يستطع كثير منا العملَ بهذا الحكم وصاروا آثمين. ولكن شرائع الأديان الأخرى لا تراعي المحيط والظرف. فمثلا من تعاليم الآرية الهندوس ضرورة إحراق الميت باستعمال مقادير معينة من مواد محددة مثل الصندل والزبد والزعفران وغيرها. فقد كتب الباندت ديانند تفاصيلها كالآتي: يجب أن تكون الزبدة بوزن الميت، يضاف إلى كل كيلوغرام من الزبدة عُشْر الغرام من المِسك، وغرام واحد من الزعفران. بالإضافة إلى عشرين كيلوغرام من الصندل على الأقل، وإذا زاد فلا بأس. ويجب أن تصنع منصة الحرق من أخشاب الأُلُوّة والتغر والكافور والبلاش✪ وغيرها، ويوضع عليها الميت ويوضع الحطب فوق وجهه بارتفاع شبر، وتُرَشّ الزبدة عليه ويُحرق. (ستيارتھ پركاش (ترجمة أردية) الباب ١٣ص ٦٤٢)

وذات مرة قدّرتُ ثمن هذه الأشياء الضرورية لحرق الميت، فوجدتُ أن ثمنها حوالي ٦٠٠ روبية. والظاهر أن كثيرًا من الناس لا يقدرون على جمع هذا المبلغ ولو باعوا كل ما في بيتهم. ثم إن كثيرا منهم لا يملكون بيتا ولا أرضا ولا عقارا، وإنما يعيشون حُرّاسا في بيوت الكبار، فأنّى لهم أن يأتوا بهذه المقادير من الزبدة والصندل والمسك والزعفران وغيرها. وهذا دليل على أن شريعة الآرية الهندوس ليست طبقًا لما ورد في قول الله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، لأنها لا تراعي ظروف الناس، مع أن الإنسان إنما يعمل في نطاق ظروفه، ومن المحال أن يعمل خارج محيطه.

فالله تعالى يقول هنا إننا قد جعلنا للإنسان محيطًا وأقمنا حوله أنواع الحدود التي لا يمكنه تجاوزها، والتعاليم التي آتيناه إياها إنما آتيناها بالنظر إلى كل هذه الحدود.

✪ هذه أسماء لأشجار هندية. (المترجم)

فلو أمر الله –مثلا – أن يتبرع كل إنسان بعشر روبيات لأصبح مئات الناس كفارا، إذ ليس عند الجميع هذا القدر من المال، ولكنه تعالى قال أَنفِقوا في سبيله جزءًا مما عندكم قلَّ أو كثُر. وهذا الحُكم يتلاءم مع ظرف كل إنسان وبيئته، إذ يمكن أن يتبرع شخص بقرش وينال الثواب، ويمكن أن يتبرع الآخر بمئة ألف روبية وينال الثواب. إن أخذ الظروف في الحسبان ضروري جدًا، لأن الحُكم الصادر بغض النظر عن المحيط لا ينجح أبدا. والله تعالى قد راعى في أحكامه دائمًا محيط الفرد وظروف الأمة كلها أيضا؛ وما لم يكن عقل الأمة كله قادرا على استيعاب التعاليم السامية لا يُنــزِلها.

فالاعتراض لماذا لم ينــزل الله تعالى القول الفصل قبل الإسلام اعتراض باطل، لأنه لو نزل القول الفصل عندها لكان مَثَله كمَثَل أن يأمر الله الفقير المفلس بأن يتبرع بمئة ألف روبية؛ والظاهر أن الذي هو بحاجة إلى كل قرش لا يقدر على دفع هذا القدر من المال. فكيف يمكن إذنْ أن يُنــزِل الله تعالى قوله الفصل لقوم لم تكن عقولهم قد تطورت ونضجت. ما كان القول الفصل لِيَنــزل إلا عند بلوغ العقل الإنساني أوجَ تطوره وعند قدرته على استيعاب كل الأحكام الروحانية السامية. فإذا كان هؤلاء يقولون: لماذا لم يعطِ الله آدمَ القول الفصل وأعطاه محمدا أليس هذا انحيازا لا مبرر له إذ لم يُعطِ الأولَ الشريعة السامية وأعطاها الأخيرَ؟

فجوابنا: لماذا أنتم تَضعون على رأس الولد الصغير كيلوغرامًا واحدا، وتُحمِّلون الكبير القوي أربعين كيلوغراما مثلا؟ إنما سببه لأنكم تعلمون أنكم لو وضعتم على رأس الولد أربعين كيلوغرامًا لمات، ولكن الشخص القوي يحملها بسهولة. وهذا لا يسمى انحيازًا، بل يسمى مقتضى الحال، ولو فعلتم خلافه صار ظلمًا. كذلك أنزل الله تعالى القول الفصل حين كانت الدنيا قادرة على حمله، ولو أنزله قبلها لكان ظلمًا منه لا إحسانا. فاعتراضكم أن الله تعالى –والعياذ به– قد ظلم الأنبياء السابقين وانحاز إلى محمد بإنزاله القول الفصْل عليه دونهم، باطلٌ لا أساس له مطلقا. فإن الله تعالى لم يظلم أحدًا، بل الواقع أنه قد أحسن إلى قوم موسى وعيسى إذ لم ينــزل عليهما القول الفصل، وإلا لهلكت أمتهما لكونها غير قادرة على

إدراك ما في هذه الشريعة الكاملة من حِكَم ولا على العملِ بها، فمثل هذه الشريعة ما كانت لتطوِّر قواهم وكفاءاتهم، بل كانت ستقضي عليها وتدمّرها؛ ومن أجل ذلك أنزل الله إليهم الشرع الذي كان كاملا في عصرهم نظرًا إلى ارتقائهم العقلي، ولم ينـــزل عليهم الشرع الكامل الكلي الأبدي.

ونرى أن هذه الحدود والقيود قد جعَلها الله في المخلوقات الأخرى أيضًا، فجعَل الأسدَ مثلاً يأكل اللحم ولا يأكل الكلأ، بينما جعل البقرةَ تأكل الكلأ لا اللحم. ومن مقتضى العقل أن لا يُكلَّف أحدٌ إلا بما هو في وسعه وكفاءته. فكم هو أحمق وغبيٌّ مَن يرى البقرةَ تأكل الكلأ والأسدَ يأكل اللحم، فيقول هذا ظلم عظيم أن يُطعَم أحدهما لحمًا والآخر كلأً، فإما أن يُطعَم الاثنان لحمًا أو الاثنان كلأً! فلو زار أحد حديقةَ الحيوانات ورأى أمام الأسد لحمًا وأمام البقرة كلأً، فقال: ما هذا الظلم والانحياز، فهل يؤيده أي عاقل يا ترى؟ كلا، بل سيقول له الجميع: ليس في ذلك انحياز للأسد ولا ظلم للبقر، لأن البقر لا تقدر إلا على أكل الكلأ، والأسد لا يقدر إلا على أكل اللحم. كذلك هي حال الشرائع، فإنها تنـــزل دومًا بحسب كفاءات الناس؛ فالقول لماذا لم ينـــزل القول الفصل في البداية يماثل القولَ: لماذا لا يُطعَم الوليد الخبزَ من يومه الأول بدل الحليب؟ ذلك لأن الوليد لو أُطعمَ الخبز لمات بدلاً من أن ينمو، فإنما منفعة الوليد أن يُسقى حليبا فقط. ولو وضعتَ العظام أمام الأسد لمضَغها وأكلها، ولكن لو وضعتها أمام الإنسان لم يستطع تناولها ولو ابتلع عظمًا كبيرا لجرح أمعاءه وقتَله في النهاية. وتوجد في حدائق الحيوانات الكبرى حيوانات كثيرة تأكل الحصى، فلو وضعت أمامها حصاة ابتلعتها فورا، فلو وضعتَ – بعد رؤية هذا المشهد – الحصى أمام شخص وقلت له: كُلْها فإنك أشرف المخلوقات، فلا شك أنك تُعَدّ غبيًا، لأن الإنسان لو أكل الحصى مات. هذا هو الموضوع الذي بيّنه الله تعالى في قوله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، وقال عليكم أن تتذكروا دائمًا أن الشرائع نزلت دائمًا بحسب الظروف، ولو نزلت شريعة –مهما كانت سامية– دون النظر إلى ظروف الناس وقدراتهم، لأهلكتهم بدلاً من أن ترتقي بهم إلى الدرجات العلى. فعدمُ نزول "القول الفصل" إلى الأولين لم يكن ظلمًا بهم، بل

أنزل الله إليهم ما كان ملائما لهم؛ ثم لما ارتقى العقل الإنساني وبلغ نضجه أنزل الله إليهم القول الفصل حيث رأى أن الناس قادرون الآن على حمله وأن نزوله صار ضروريًا. إن إنزال القول الفصل إلى الأولين كان ظلمًا، وعدم إنزاله لمن بعدهم كان ظلمًا أيضًا؛ ففعل الله عين الصواب؛ فالاعتراض على أي من أفعاله حمقٌ وغباء.

باختصار، إن الله تعالى قد ردّ في هذه السورة على الاعتراضات التي يمكن أن تثار على قوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ في سورة الطارق، حيث بيّن بقوله ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أن من سنة الله أنه إذا فسد الإنسان أصلحه الله تعالى، وأن قانونه الطبيعي يكشف أنه خلق الإنسان معتدلَ القوى، فكيف يمكن – والحال هذه– أن لا يُنـــزل شرعًا معتدلا.. أي شرعًا يشفي غليل كل قوة من قوى الإنسان، وإلا فلا يُسمّى شرعًا كاملا. فكان لزامًا على الله تعالى أن يُنـــزِل شريعة يشفي بها غليل كل نوع من طبائع البشر، ثم كان ضروريًا أن يهيّئ الله الأسباب لإصلاح كل فساد يتطرق إليهم؛ فوجود قوة الفساد في الإنسان كان يتطلب أن ينـــزل الشرع مرارًا من ناحية، ومن ناحية أخرى يقتضي خلقُ الله الإنسان مزودًا بقوى معتدلة وكاملة أن تنـــزل في وقت من الأوقات شريعة كاملة كل الكمال.. تراعي كل العواطف والمشاعر من الفطرة الإنسانية. وهذان المفهومان قد تضمنهما قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ثم جاء شرحهما في قوله تعالى ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾.. أي أن الله تعالى يقدر طاقات الإنسان دائمًا، ثم ينـــزل هديه بحسبها.

لقد بينتُ من قبل أن الحديث في قوله تعالى ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ليس عن تقدير الكفاءات الإنسانية وقتَ خلقه، أو القوى الموجودة فيه، ذلك لأنه يُزوَّد بها قبْل أن يُخلَق لا بعده، بينما قدّم الله هنا قوله ﴿خلَق﴾ على قوله ﴿قدَّر﴾، إنما التقدير المذكور هنا يتعلق بوقت ظهور تلك القوى فعلاً.. والمراد أن الله تعالى كان يُنـــزِل إلى الإنسان الهدى بقدر انكشاف قواه وكفاءاته فعلاً، ولا يعني التقدير هنا تقدير مدى كفاءات الإنسان؛ إذ كيف يمكن أن يخلقه الله أولاً ثم يفكر في الكفاءات التي

سيزوده بها؟ إنما يزوده بها وقت الخلق لا بعده. فمثلا عندما يريد الصانع صنع محرِّك يقدر طاقته وقدرته أولاً، وبعدها يصنعه. هكذا يفعل الصانع الماهر دائما، يخبر الناس بعد صنعه: هذا المحرك قوته كذا وكذا؛ أما الصانع عديم الخبرة فلا يعلم قوة المحرك إلا بعد أن يصنعه. أو خذوا مثلاً صانع الأسرّة فإنه يفكر أولاً أن طول السرير يجب أن يكون ستة أقدام مثلاً، ثم يصنعه بحسب هذا المقاس، ولكن عديم الخبرة لن يفكر أولاً في مقاسه المناسب، بل سيصنعه أصغر من المقاس المطلوب أو أكبر، ثم يقول: لا بأس، سأصنع الآن غيره. باختصار، إن الصانع الماهر لا يفكر ولا يقدر مواصفات الشيء بعد صنعه. فما دام الله تعالى قد ذكر هنا قوله ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ قبل قوله ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾، فهذا دليل واضح على أن الحديث هنا ليس عن تقدير كفاءات الإنسان الموجودة فيه عند خلقه، بل عن تقدير كفاءاته عند ظهورها فعلا، فبين تعالى أنه يُنـــزِل الشريعة دائما بقدر تطوُّر كفاءات الإنسان وبحسب قدرته على إخضاع مشاعره تحت القانون الإلهي؛ أو ينـــزل العلاج بقدر ما يتطرق إليها من فساد. لا شك أن صحف موسى عليه السلام كانت كاملة لقومه، وأن تعاليم عيسى عليه السلام كانت كاملة لأمته، ولكنها لم تكن كاملة بالنسبة لأمة المصطفى ﷺ، لأن أهل الدنيا كانوا قد تطوروا عندها عقليا، فمست الحاجة إلى أن يُنـــزل الله تعالى شرعًا كاملاً أبديًّا بدل الشرائع الكاملة في عصرها فقط. وفي الآيات التالية يضرب الله تعالى مثالاً من الخَلق المادي، ليبين أن قانونه هذا ليس جاريًا في العالم الروحاني فحسب، بل يعمل في العالم المادي أيضا.

وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥

شرح الكلمات:

المَرْعى: المرعى: الكلأ تأكله الأنعام؛ موضعُ الرعيِ (الأقرب). والمرعى هنا بمعنى الكلأ دون الرعي.

غُثاءً: الغُثاءُ والغُثّاء: القَمَشُ (أي الرديءُ من كل شيء)؛ الزبدُ؛ الهالكُ؛ البالي من ورق الشجر المخالط زبدَ السيل. (الأقرب)

أحوى: حَوِيَ الشيءُ: مَن به حُوَّة (الأقرب). والحُوَّة سوادٌ إلى الخضرة، أو حمرةٌ إلى السواد. (الأقرب)

التفسير: لقد دحض الله بهذه الآية ذلك الاعتراض الذي يثار حول القرآن الكريم بسبب قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ الوارد في السورة السابقة، فيقول الله هنا ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾.. أي أن الله هو الذي أخرج الكلأ والحشيش الذي يبقى لفترة محدودة. فمن الكلأ ما عمره عشرون يوما، ومن الخضار ما عمره شهر أو شهران وستة أشهر، ثم يتهشم ويفسد حتى يصبح غثاء أحوى.. أي أنه لا يصبح شيئًا متآكلا فاسدًا فحسب، بل يصير لونه مائلاً إلى السواد. علمًا أن الشيء في بعض الأحيان يفسد ويُنتن ولكن لونه لا يتغير، وأحيانًا يتغير لونه أيضا. فكلمة ﴿أحوى﴾ جيء بها لبيان المعنى الإضافي بأنه لا يصبح نتنًا فاسدًا فحسب، بل يتغير لونه أيضا. وبضرب هذا المثال قد بيَّن الله تعالى أنه ما دامت بعض الأشياء التي هي من خَلْقه تفسد وتخرب لهذه الدرجة، فكيف يصحّ قولكم إنه ما دام الله يريد إنزال الشرع فلم لَمْ يكتفِ بإنزال القول الفصْل؟ ولماذا أنزل الشرائع التي كانت ستتعرض للتغير والفساد؟ هلا فكرتم أن الكلأ أيضًا من خلق الله تعالى أيضا، وليس من خلق غيره، وأن الخضار التي تستعملونها من خلقه أيضا، لا من خلق غيره، ومع ذلك ترون أن هذا الكلأ والحشيش والخضار أيضا تتعرض للخراب والفساد بعد فترة من الزمن، حتى تصبح منتنة متعفنة تولد غازات فاسدة وتتسبب في انتشار أمراض كثيرة؟ مع أنه حين تكون هذه الخضار والكلأ بحالة جيدة فتَحمل للناس والأنعام منافع شتى حيث يأكل منها الناس والأنعام، فتنمو بها أجسامهم وتتقوى بها عقولهم، ولكن نفس هذه الخضار والحشيش تصاب بالفساد والخراب بعد أيام وتتسبب في تفشي كثير من الأمراض وفساد صحة أهل البلاد. فإذا لم يكن في خَلْق الخضار التي تفسد وتتعفن سريعًا وتضر الناس ما يقدح

في عظمة الله في رأيكم، ولا تقولون إنها مِن خلق غير الله تعالى، بل تعترفون إنها أيضًا آية مِن خلق الله وقدرته كالأشياء النافعة الأخرى التي تعيش طويلا، فلماذا تعترضون في العالم الروحاني على أشياء مماثلة نفعُها كان مؤقتًا؟ و لم لا تفقهون أن من الأشياء ما حياته قصيرة ومنها ما حياته طويلة، وأن بعض الشرائع تكون قصيرة المدى، وبعضها طويلة المدى. إن في خلْق الله الماديّ دليل على أن الله تعالى قد خلق أشياء عمرها قصير مثل الخضار التي تعيش بضع أيام ثم تفسد وتهلك، كما خلَق أشجارًا تعيش مئات السنين، بل الواقع أن من المخلوقات ما سيبقى ما بقي الإنسان كالشمس والقمر والأرض والجبال والمعادن وغيرها. فثبت أن المخلوقات في الدنيا نوعان؛ مخلوق يعيش بضعة أيام ويفنى، ومخلوق يعيش على الدوام بالنسبة لنا، وإن كان فانيًا بالنسبة إلى الله تعالى، ومثاله الشمس، فالله وحده يعلم متى خُلقتْ إذ ليس بوسعِ بَشَرٍ أن يقول إنه قد رأى خَلْقها، كما لا نعرف نحن ولا أجيالنا القادمة متى ستفنى، لأن الجنس البشري سيفنى قبل فنائها، ولو تزامن فناء الجنس البشري بفنائها – على فرض المحال – لن يعرف الناس ذلك، لأنهم أيضًا سيفنون عندها؛ وكما أننا نرى الشمس، كذلك ستظل أجيالنا القادمة يرونها، ولن تفنى الشمس أمام أعين النسل البشري. ونفس الحال بالنسبة إلى القمر والأرض والنجوم والجبال. لا شك أن الجبال تتغير قليلا نتيجة الزلازل، إلا أنها كانت موجودة قبل خلق الإنسان، وستظل هكذا حتى فنائه. قصارى القول، إن الله تعالى قد خلق الأشياء بنوعيها، ولا يعترض أحد على خَلْقها، بل يعتبر المخلوقات بنوعيها دليلاً على قدرة الله تعالى. فهناك آلاف الآلاف من الأشياء في الدنيا التي يعيش بعضها يوما، وبعضها أسبوعا، وبعضها ستة أشهر، وبعضها ساعة، وساعة ونصف، فمثلا لا تزيد حياة النملة التي تُخلق في أيام المطر عن ساعة ونصف، حتى يضرب بها المثل في بلادنا فيقال: "حتى النملة صارت لها أجنحة". لو نظرتَ في البيت بعد خروج هذه النمل لوجدتَ على الأرض أكوامًا من جثثها وأجنحتها. فهذا المخلوق الذي لا يعيش أكثر من ساعة ونصف هو أيضًا من خلق الله، ومع ذلك لا يطعن أحد برؤيتها في قدرة الله تعالى قائلا: لماذا خلق الله الشمس التي هي باقية منذ مئات الآلاف من

السنين، وخلق هذه النملة التي أهلكها في ساعة ونصف؟ بل يقول الجميع: إن خَلْقها دليل على قدرة الله، كما أن خلق الشمس دليل أيضا على قدرته تعالى.

فمن الحماقة القول: كيف يمكن أن يكون الشرع من عند الله تعالى، ثم يُنسخ بعد فترة من الزمن؟ لو كان من عند الله لما نُسخ! هذه الفكرة توجد عند الهندوس عادةً، إذ يقولون إن الله تعالى إذا أنزل كلامه فلا ينسخه أبدا، لأن في نسخه دليلاً على أنه ليس من الله تعالى. والواقع أنها فكرة باطلة لا أساس لها مطلقًا، لأن التدبر في النواميس الطبيعية يكشف لنا أن الله تعالى قد خلق المخلوق بنوعين: ما تطول حياته، وما يعيش عيشة قصيرة؛ فبعض المخلوقات يفنى في دقائق، وبعضها في ساعات، وبعضها في شهور، وبعضها في سنوات، وبعضها تبقى ما بقي الإنسان، وسيراها ما بقي الجنس البشري على الأرض.

أما الذين فسروا كلمة (أحوى) في قوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ بمعنى: النَّضِر شديد النضارة (روح المعاني)، فقد واجهوا مشكلة، لأن الغثاء هو الشيء الرديء المهشم، فالقول أن الشيء الرديء المحطّم يصبح خَضِرًا نَضِرًا ليس قولاً سليما. وقد أوجدوا حلاً جيدًا لهذه المعضلة بقولهم إن (أحوى) حال للمرعى، وقوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ جملة اعتراضية، والتقدير: الذي أخرج المرعى وهو أحوى فجعله غثاء.. أي أن هذا المرعى – رغم خضرته ونضارته – يفسد بعد أيام ويتلف. كذلك كانت حال الشرائع السابقة؛ إذ كانت تنزل لسدّ الحاجات المؤقتة، ثم تتعرض للخراب والفساد بعد مدّة، إلى أن آن الأوان لأن يعطى الجنس البشري شريعة دائمة أبدية.

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾

شرح الكلمات:

فلا تنْسى: نَسِيَ الشيْءَ نَسْيًا ونسيانًا ونِسايةً ونَسْوةً: ضدُّ حفظه. قال الراغب: النسيانُ: تَرْكُ الإنْسانِ ضَبْطَ ما اسْتُودِعَ.. إما لِضعْفِ قلبه أو عن قصدٍ حتى

ينحذف عن القلب ذِكْرُه، وعليه ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.. أي لا تقصدوا الترك والإهمال. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في الآيات السابقة أن نزول الشرائع المؤقتة العابرة في زمن الأنبياء السابقين، وعدم نزول القول الفصل عندها، لم يكن خلاف سنتنا، لأن القول الفصْل ما كان لينـــزل إلا بعد أن تصير البشرية قادرة على تحمله، وبعد أن تكون بحاجة إليه؛ وحيث إن الحاجة إلى القول الفصل قد مسَّت في زمن نزول القرآن فلذلك نزل القول الفصل الآن لا قبله.

لكن هنا ينشأ سؤالان: أوّلهما كيف نصدِّق أن هذا الوحي هو القول الفصل؟ لنفترض أن القرآن قد نزل من عند الله فعلاً، ولكن المعروف أن شرائع عديدة نزلت من عند الله لسدّ الحاجات العابرة في زمنها فقط، فلماذا لا نعتبر أن القرآن أيضا شريعة مؤقتة؟ ألَم ينتهِ عصر التوراة عندكم؟ ألم تنمحِ الأناجيل من الدنيا؟ ألم ينتهِ زمن الفيدا ؟ ألم تُنسخ الزندافستا؟ فما دمتم تعترفون أنها قد نُسخت وانمحت، فلماذا لا نقول إن القرآن أيضا سيُنسخ ويمحى بحسب هذا القانون؟ يمكن القول بضرورة القرآن في عصر محمد، ولكن لِمَ لا نقول إنه أيضا سوف يصبح منسوخًا مثل الصحف السابقة في وقت ما بعد انقضاء هذا العصر؟ أما لو قلتم إنه كتاب كامل فلن ينسخ، فهذا ليس صحيحًا، لأن كتاب موسى أيضًا كان كاملا في زمنه ومع ذلك أصبح منسوخًا؛ فمجرد ادعائكم أن القرآن كتاب سماوي كامل لأهل هذا العصر ليس دليلا على أنه سيظل صالحا للعمل في المستقبل أيضا. لا شك أن هذا الأمر دليل على أن القرآن كتاب سماوي كامل لهذا العصر، ولكنه ليس دليلا على أنه لن تمسّ الحاجة إلى كتاب سواه في المستقبل أبدا، أو أن شريعة القرآن لن تُمحى ولن تُنسَخ أبدًا؛ كلا، بل من الممكن أن يفسد هذا الكتاب ويُنسخ في عصر من العصور وينـــزل مكانه كتاب آخر؟

والسؤال الثاني هو: إذا كان في القرآن ما تنسبون إليه من المحاسن، وإذا كان من المقدر أن لن ينـــزل بعده كتاب آخر، فلماذا يقول القرآن ببعثة موعود آخر، أو

لماذا ينبّئ محمد (ﷺ) أنه سيأتي بعده مأمور آخر من عند الله تعالى؟ فهذان السؤالان لا يزالان من دون إجابة. أي كيف نصدق أن القرآن الكريم لن يفسد حتى نهاية الدنيا؟ ولماذا أُخبر عن بعثة موعود بعده ما دام كتابا سماويا كاملا؟

والإجابة على هذين السؤالين كانت قد جاءت -ضمنيًا- في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾، ولكنها لم تكن مفصلةً، فلذلك يجيب الله عليهما الآن في الآية قيد التفسير.

ملخص السؤال الأول: كيف نصدق أن القرآن هو القول الفصل، ولِمَ لا نقول إنه أيضا سيُنسَخ ويُلغى في يوم من الأيام ليأخذ مكانه كتاب آخر؟ فأجاب الله على ذلك بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾.. أي أن من سنة الله أن الأشياء التي قُدِّرَ لها التغيير والتبديل تنمحي أولاً بأول. خذوا مثلا الإنسان، فبما أن المقدر له أن يموت ليأخذ مكانه غيرُه، فلذلك نجد الشيب يغزوه وتظهر عليه آثار الضعف والاضمحلال بعد عمر معيَّن، مما يدل بوضوح أنه سيفنى الآن ويأخذ مكانه غيره. فثبت من ذلك أن من سنة الله تعالى أن المخلوقات التي لم تُخلَق لتعيش – كالشمس والقمر – مدة طويلة يغزوها المشيب وتظهر عليها آثار الشيخوخة والضعف بعد فترة، ومثالها الإنسان والحيوان والشجر والمرعى وغيرها، مما يكشف بوضوح أن الله يريد لهذه الأشياء أن تنمحي ويأخذ غيرها مكانها. وهذا القانون الإلهي نفسه نراه ساري المفعول فيما يتعلق بالصحف السماوية السابقة. فباستثناء القرآن الكريم لن تجد أية صحيفة سماوية في العالم محفوظة في صورتها الأصلية. فمثلاً تجد في نسخة من كتاب سماوي واحد ما لا تجده في نسخه الأخرى. خذوا مثلا الأناجيل، فهناك أربعة أناجيل، ومع ذلك توجد فيها عشرات الاختلافات. ثم إن الطريقة التي انتقوا بها هذه الأناجيل الأربعة تدل أنه لا يجوز اعتبارها سماوية بحال من الأحوال، إذ كان عند المسيحيين ٣٠٠ إنجيل انتقوا منها هذه الأربعة.
(Dictionary Of The Bible, Dr. W. Smith Vol:11 p 943)

وهناك قصة تُحكى عن انتقائها، والله وحده أعلم بصحتها، وهي أن القسيسين ناقشوا طويلا قضية انتقاء الأناجيل الموثوق بها، فلما رأوا أنهم لا يتوصلون إلى نتيجة وضعوا على طاولةٍ كل الأناجيل البالغ عددها ٣٠٠، وضربوها بالعصا، فما بقي منها على الطاولة اعتبروها موثوقا بها.. أي أنها من عند الله تعالى، وما وقع منها على الأرض اعتبروها رديئة. وقصّتهم هذه تشبه قصة معلم كسول: يحكى أن معلمًا كان لا يفحص أوراق اختبار الطلاب، بل كان يضعها على طاولة أمامه ويضربها بيده، فكان يعتبر الطلاب الذين سقطت أوراقهم على الأرض راسبين، ومن بقيت أوراقهم على الطاولة ناجحين.

وحتى لو لم نصدّق هذه القصة معتبرين انتقاء الأناجيل الأربعة نتيجة تفكير القساوسة العميق، فالقضية تبقى على حالها، لأنه لو حُقَّ للتفكير الإنساني العميق اعتبارَ كتابٍ كتابًا سماويًّا في الواقع لجاز له أن يأتي بشريعة جديدة أيضًا، أما إذا كان التفكير الإنساني غير قادر على صنع شريعة، فهو غير قادر أيضا على اعتبار كتاب إلهاميًّا بصورة قطعية يقينية، إذ لو كان هناك مدّعيان في قضية، فلا يمكن الحُكم القطعي في صالح أحدهما من دون شهادة خارجية أو داخلية تدعم هذا الحُكم.

باختصار، أخذت الصحف السابقة تنمحي وتندثر بعد نزولها مباشرة، وذلك دليل قطعي على أن الله تعالى لم يُنـــزلها للهداية الدائمة الأبدية، حتى إن أتباعها أنفسهم يقرّون أنها لا تزال تنمحي وتندثر منذ فترة طويلة. إن المسيحيين أنفسهم يعترفون أن الأناجيل قد دُوِّنت بعد المسيح الناصري عليه السلام بفترة طويلة جدًا، وأن البشر تَولّوا تدوينها و لم تنـــزل من السماء. أما الاختلاف بين شتى نسخ الأناجيل فيعترف به الباحثون المسيحيون أنفسهم. والحال نفسه بالنسبة إلى التوراة؛ فإن شهادتها الداخلية تكشف أنها كانت قد انمحت واندثرت في وقت ما، حيث كان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد .. أي في أواخر القرن الرابع عشر الإبراهيمي.. حين أحرق نبوخذنصّر بيتَ المقدس، فاحترقت نسخ التوراة المقدسة أيضا، وأُسِرَ اليهود ونُفوا إلى بابل، فظلوا في السبي سبعين سنة، ثم أُطلق سراحهم، فقام العُزير

– أي عزرا عليه السلام الذي يوجد له كتاب في العهد القديم– بتدوين التوراة الحالية بمساعدة أحبار آخرين، وكتبها بناء على ذاكرته.

علمًا أن هناك كتابًا آخر باسم عزير عليه السلام باليونانية واسمه (ESDRAS)، وهو غيرُ الكتابِ الموجود باسمه في العهد القديم. ورغم عدم وجود هذا الكتاب في التوراة الحالية، إلا أنه ليس أقلَّ موثوقيةً منها؛ ولذلك قد أُضيف إلى ملحق التوراة المطبوعة فيما بعد. ودراسة هذا الكتاب تكشف لنا كيف أعاد العزير عليه السلام كتابة التوراة بمساعدة خمسة من أصحابه في أربعين يوما. وقد ورد فيه ما يلي:

انظُرْ أيها الإله، سأذهبُ كما أمرتَني، وسأشرح الأمر للموجودين، ولكن من يشرح للذين يولدون فيما بعد. إن الدنيا في ظلام، وأهلها يعيشون بدون نور، لأن الشرع قد احترق، فلا يعرف أحد ما تعمل أنت وما سيحدث. ولكن إذا كنتَ تشملني بفضلك، فأَنزِلْ عليّ روح القدس لأكتب كل ما وقع في الدنيا منذ البداية، وما هو مكتوب في شرعك، لكي يهتدوا إلى سبيلك، وليحيا الذين يكونون في الزمن الأخير. فقال لي في الجواب: اذهبْ إلى سبيلك، واجمع الناسَ وقل لهم أن لا يبحثوا عنك لأربعين يوما. ولكن انظرْ، اصنَعْ خشب الصناديق الكثيرة وخُذْ معك سيريا ودبريا وسليميا وأكانس وأسيل SARIA & DABARIA & SELEMIA & ECANUS& ESIAL. هؤلاء الخمسة الذين هم مستعدّون ليكتبوا بسرعة كبيرة، وائت بهم هنا، وسوف أُشعِلُ شمعة الفهم في قلبك التي لن تنطفئ إلى أن تكتمل الأمور التي تبدأ بكتابتها. (الباب الرابع عشر: الفقرات ٢–٢٥)

ثم ورد: "فاعتزلَ العُزير مع هؤلاء الكَتَبة الخمسة أربعين يوما، وكتب بتأييد الإلهام مئتين وأربعة كتب في أربعين يوما". (الفقرة: ٤٤).

ولم يكتب هؤلاء التوراة فقط، بل كل الكتب المنسوبة فيها إلى الأنبياء بدءًا من موسى إلى العُزير عليهم السلام.

هذا، وليس هناك أية شهادة تاريخية على أن اليهود كانت عندهم عادة حفظ التوراة عن ظهر قلب، بل إنهم لا يحفظونها حتى اليوم؛ فكيف يُظَنّ –والحال هذه– أن الذين أعادوا كتابة التوراة قد كتبوها بشكل صحيح؟ إن تدوين التوراة ثانيةً قد

تمّ بعد سبي اليهود بيد نبوخذ نصّر إلى بابل بفترة طويلة، فعاشوا هناك ستين أو سبعين سنة تقريبا. (راجع تاريخ بائيبل للقسيس ويليام ج بليكي، ص 401). ولما قويت شوكة قورش مَلِكِ فارسَ وميديا عقد معه اليهود في بابل معاهدة سرّية، فلما هاجمها ساعدوه من داخلها، فاستولى عليها بسهولة، ثم سمح لبني إسرائيل بالعودة إلى وطنهم جزاء على مساعدتهم له. وكان ذلك زمن النبي عزرا الذي في زمنه دُونت التوراة ثانية. وهذه الفترة بين هجوم نبوخذنصر وتدوين التوراة ثانية تصبح مئة سنة تقريبا. ولا يخفى على المرء أن كثيرًا من اليهود ماتوا في مئة سنة. فلو سلّمنا جدلاً أن اليهود كانوا حافظين للتوراة عن ظهر قلب قبل حرقها، فمع ذلك ليس تدوينها بعد كل هذه الفترة بأمر يقيني، لأن كثيرا منهم كانوا قد ماتوا في هذه المدة. ولكن الواقع أنه لم يكن عند اليهود رواج لحفظ التوراة أصلا، فما كتبه هؤلاء الكتبة إنما كتبوه بناء على قياسهم وخيالهم. ونجد الدليل على ذلك في التوراة نفسها، حيث ورد فيها أن موسى عليه السلام قال إن الله قد أمركم بكذا وبكذا، ثم ورد فيها:

"فَمَاتَ هُنَاكَ مُوسَى عَبْدُ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مُوآبَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. وَدَفَنَهُ فِي الْجِوَاءِ فِي أَرْضِ مُوآبَ، مُقَابِلَ بَيْتِ فَغُورَ. وَلَمْ يَعْرِفْ إِنْسَانٌ قَبْرَهُ إِلى هذَا الْيَوْمِ. وَكَانَ مُوسَى ابْنَ مِئَةٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَاتَ، وَلَمْ تَكِلَّ عَيْنُهُ وَلا ذَهَبَتْ نَضَارَتُهُ." (التثنية ٣٤: ٥-٧)

فمن ذا الذي سيُصدِّق أن الله قال لموسى وهو يكلّمه: فمات موسى ودُفن في أرض مؤاب، ولا يعرف قبره هناك إلى الآن؟ يتضح من هذا جليًّا أن هذه الأخبار قد كتَبها شخص بعد موسى عليه السلام في وقت لم يعُد الناس يعرفون مكان قبره عليه السلام. إذ كيف يمكن أن لا يعرف أحد من أتباع موسى قبره عليه السلام وهو سيّدٌ لمئات الآلاف، وكانوا يفدونه بأرواحهم، خاصة أنهم كانوا يحكمون تلك البلاد حكمًا متواصلا؟ إن هذه الكلمات توضح أن آثار قبر موسى عليه السلام كانت قد انمحت خلال فترة المائة سنة بدءًا من سبي اليهود حتى زمن النبي عزرا، وعندما عاد بنو إسرائيل إلى وطنهم ودُونت التوراة ثانية أضافَ بعض الكتبة من عنده أن لا أحد يعرف مكان قبر موسى الآن. إذ كيف يمكن أن يندثر أمام أعين قوم قبرُ إنسان

كان حاكمًا لهم ومؤسس جماعتهم، ومحور قوتهم السياسية والعلمية، وقد رفعهم من الحضيض إلى القمة. فإننا نرى في بلادنا أن قبور الدراويش والفقراء العاديين أيضا لا تندثر آثارها، فقبور نظام الدين أولياء ومعين الدين الجشتي وأحمد السرهندي وغيرهم – رحمة الله عليهم – لا تزال موجودة إلى اليوم، مع أن حكم المسلمين على الهند قد انتهى، وتحكُمُهم اليوم أمة أخرى. لو أتى زمن يصبح الهندوس فيه غالبين على الهند ويطردون المسلمين منها ويهدمون أماكنهم المقدسة، ثم يرجع المسلمون بعد زمن إلى هذه البلاد، فيمكن أن يقال عندها لا ندري الآن أين كان قبر هؤلاء الصلحاء! أما موسى عليه السلام فكان نبي الله، ونبيّا تشريعيًّا، وإمام قوم وقائدهم، فكيف اندثر قبره بهذه السرعة أمام أعينهم؟ فثبت بهذه الفقرة من التثنية بجلاء أن التوراة قد كُتبت بعد عودة اليهود من السبي، ولأنهم ظلوا خارج بلادهم قرابة مئة سنة، فعندما رجعوا إلى وطنهم لم يعرفوا مكان قبر موسى عليه السلام، ولذلك كتب بعضُ كتبة التوراة: لا يُعرف مكان قبره الآن.

هذه شهادة داخلية من التوراة على أنها كانت قد انمحت واندثرت، ثم دوّنها الناس بناء على ذاكرتهم.

والحال نفسه بالنسبة لكتاب الفيدا الهندوسي، فأوّلاً لم يُفصَل حتى اليوم فيما إذا كانت كُتب الفيدا ثلاثة أم أربعة. ثم هناك اختلاف كبير بين عبارات كتب الفيدا؛ حيث يوجد في كتاب جملة لا توجد في الآخر، ثم هناك اختلاف في عدد العبارات بين نسخة وأخرى.

وثانيا: لقد أقرّ علماء الهندوس أنفسهم أن الفيدا ليس محفوظا على شكله الأصلي، بل نالته يد التحريف والتغيير. فيقول الباندت "شانتي ديو شاستري": لم يُفصَل حتى اليوم فيما إذا كانت كتب الفيدا أربعة أم ثلاثة! إنها ثلاثة في رأي "منوسمرتي" و"شتبته براهمن" وهي: ريجفيدا ويجرفيدا وسامفيدا، بينما هي أربعة في رأي "واجنئي أُبَنَشُد" و"برهمنو أبنشد" و"مندك أبنشد". (مجلة گنگا، فبراير ١٩٣١ ص ٣٢٢)

بينما قال "ساهَتْيَ آچاريه باندت مَهِنْدَر مِشَرْ": قد وقع في الفيدا اختلاف كبير من ناحية العصور والأقطار والتلاوة، ونتيجة العداء بين المعلّمين وبسبب استعمال الفيدا في مراسيم القرابين فقد حصل فيه اختلاف كبير، فصارت لكل كتاب من الفيدا نُسَخ كثيرة، فمثلا هناك عشرون أو إحدى وعشرون نسخة مختلفة لـــ ريجفيدا، ومئة نسخة مختلفة ليَجُرفيدا، وألف نسخة لسامفيدا، وتسع أو خمس عشرة نسخة لأتهروفيدا. (مجلة گنگا يناير ١٩٣٢، ص ٤٨)

وكتب الباندت راجا رام البروفيسور في كلية د. أ. و. بلاهور: "لقد ترك " سائن آچاريه" الفقرات رقم الستين إلى الثلاث والستين من الباب التاسع من كتاب أتهروفيدا من دون تفسير. ويوجد بين الفقرتين ٦٩ و٧٠ فقرةٌ هي في الأصل من كتاب آخر هو ريجفيدا الباب ١ فقرة ٩٩. وقد أثبت "هَبْتني" في مقال مفصّل أن البابين التاسع عشر والعشرين من أتهروفيدا أُضيفا إليه فيما بعد. (أتهروفيدا بهاش، مجلد ٢ ص ٨٣١)

ويقول "الباندت ويدك مُني": الواقع أنه ليس هناك كتاب من كتب الفيدا هو أسوأ حالاً من أتهروفيدا. لقد أضيفت إليه فقرات عديدة بعد زمن العالِم "سائن آچاريه" أيضًا. وقد برعوا في اختراع طرق التحريف أيضا. ففي الماضي كانوا يكتبون قبل كل فقرة أو عبارة كلمة بداية وعند انتهائها كلمة نهاية، ولكن حين لم يعُد يسألهم أحد تركوا تسجيل هاتين الكلمتين المشيرتين إلى بداية الفقرة ونهايتها، وهكذا يضمّون إلى المجموعة ما يشاءون. فكما أنهم يضيفون إلى مجموعة ريجفيدا أبواب "بالكْليه"، كذلك يضاف اليوم إلى أواخر "أتهروفيدا" فقرات تسمى "كُنتاب" (أي المشتملة على أنباء لم ينكشف معناها). ولو سألتَهم مِن أين جاءت هذه الأبواب كلها، بدءًا من المجموعة الخامسة إلى فقرات "كُنتاب"، فلا يعطون جوابا. لقد انتشر الجهل لدرجة أن كل من يقرأ في آخر الكتاب أتهروفيدا "مجموعة سمابتا" يوقن أن كل ما يوجد إلى آخر هذا الكتاب هو كله أبواب من "أتروفيدا"، ولا يفكرون فيمَن طبع هذا الكتاب ومن ألفه وما مكانته العلمية. (فيدسروسو ص ٩٧)

ويقول الباندنت مهيش كَنْدَرْ بارشاد BA: إن لمجموعة "واجسنَئي شُكْل ليَجُرفيد" أسلوبًا منفردًا تماما، حيث يوجد فيه "فيد" و"برهمن باغ" منفصلين، فيه أربعون درسًا، ولكن الناس يوقنون أن ثمانية منها أصلية والباقية أضيفت إليها فيما بعد..... وأسلوب الباغ من الدرس رقم ١ إلى ١٨ يماثل أسلوب "مجموعة يئتري وكرشن ياجرفيدا" نظما ونثرا. وتجد شرح كل لفظ من هذه الدورس الثمانية عشر في براهمنه. ولكن يوجد في الدرس رقم ١٧ ملاحظات مشتملة على بضعة فقرات. وقد اعتبر "كاتيائن" الدروس رقم ٢٦ إلى ٣٥ إضافات تحريفية..... أما الدروس رقم ١٩ حتى ٢٥ ففيها ذِكرُ طرق القرابين، ولكنها لا تشبه ما ورد في "مجموعة تيئتري". أما الدروس ٢٦ إلى ٢٩ فتجد فيها ذكرًا خاصا عن تلك القرابين التي هي مذكورة في الدورس السابقة. ومن هنا يُظن أنها أضيفت فيما بعد. (سنسكرت ساهتيه كا إتهاس مجلد ٢ ص ١٦٠)

إذن، علماء الهندوس أنفسهم يقرّون بأن الفيدا لم يَعُدْ محفوظا كما كان، بل أصبح محرَّفا مبدلا.

أما الزرادشتيون فإنهم يقولون بسبب عدائهم للمسلمين إن هؤلاء قد أحرقوا كتبنا الدينية بما فيها كتاب الزرادشت السماوي، فلم يبق عندنا إلا بضعة أبواب منه حيث ضاعت الباقية وتلفت.

إن ادعاءهم أن المسلمين قد أحرقوا لهم كتبهم الدينية باطل، إذ الثابت من المصادر الزرادشتية نفسها أن كتابهم "زندافستا" قد أُحرق عند هجوم الإسكندر المقدوني على بلاد الفرس. ولو سلّمنا جدلاً بادعاء حرق المسلمين لكتبهم، فهذا يثبت – على الأقل– أن كلام زرادشت ليس محفوظا عندهم بشكل كامل، إذ ليس بأيديهم إلا جزء قليل جدًّا من كتابه الأصلي.

باختصار، لم يبقَ على وجه الأرض –سوى القرآن الكريم– كتاب لأي دين يمكن الادعاء بأنه محفوظ كما قدّمه مؤسس ذلك الدين. وفي هذا دليل على أن الله تعالى كان قد قرّر اندثار تلك الكتب وانمحاءها، لينـزِّل مكانها كتابا آخر؛ وإلا فلو أراد الله تعالى حفْظَ التوراة ونشرها في الدنيا، لأقام عند انمحائها نبيًّا وأنـزلها

عليه مرة أخرى قائلا له: لقد انمحت التوراة، فها إني أُنــزلها عليك ثانيــة كمــا أنــزلتُها على موسى من قبل- لتنشرها في الدنيا مرة أخرى. ألم يكن الله قــادرًا على أن يهزم نبوخذنصَّر ويهلكه بعذابه عندما همّ بإحراق التوراة؟ أو لم يكــن الله قادرا على أن يهلك الإسكندر المقدوني بعذابه لو أراد إقامة زندافستا وحِفْظــه في الدنيا ليعمل به الناس دائما؟ أو لم يكن قادرا على أن يهلك أولئك البانداتِ وعلماء الفيدا الذين حرفوه لو كانت مشيئته أن يظل الناس عاملين بالفيدا على الدوام؟ ولو أراد الله تعالى أن تعمل الدنيا بالإنجيل فقط إلى الأبد، أفلم يكن قادرًا على إزالــة العيوب والنقائص التي أدخلها المسيحيون في الإنجيل؟ كان الله تعالى قــادرا علــى ذلك بكل يقين، لكنه سمح بهذا التحريف لأنه لم يشأ أن يبقى أي من هذه الكتب محفوظًا في الدنيا إلى الأبد.

هذا ما حصل فعلاً من جهة، ومن جهة أخرى نرى أن الله تعالى إذا أراد الإبقاء على شيء لم تستطع الدنيا إفساده مهما حاولتْ. لقد حفظ الله تعاليم عيسى عليه السلام طالما أراد حفظها، ولم يدَع الله شريعة زرادشت أن تندثر طالما أراد أن يعمل بها الناس، ولكن لما انتهت مهمة هذه الكتب رفع الله عنها حمايته. فثبت أن من سنة الله تعالى أن يحفظ الكتب السماوية من كل تلاعب وتحريف وإضافة طالما هي صالحة ونافعة للدنيا، وعندما تنتهي مهمتها تأخذ الدنيا في العبث بها. كذلك نجد في عالم المخلوقات أن الأشياء ذات الفوائد العابرة تفسد وتتعفن بعد فترة من الزمن، أما الأشياء ذات الفوائد طويلة المدى فتبقى كما هي. وهذا هو الدليل الذي يقدمه الله تعالى في قوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾. علمًا أن الخطاب هنا ليس موجهًا إلى رسول الله ﷺ فحسب، بل إلى أمته كلها. فمن أساليب القرآن أنه يخاطب النبي ﷺ أحيانًا ويعني جماعته كلها، فقوله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ يعني أن أُمته ﷺ كلها لن تنسى هذا الكتاب، وأن كلماته ستبقى محفوظة إلى الأبد، ومن أجل ذلك قال الله تعالى في موضع آخر ﴿إِنَّا نَحْنُ نــزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٠). فقوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ لا يعني أن الرسول ﷺ وحده سيحفظ القرآن،

ذلك أن حفظه ﷺ للقرآن الكريم لا يكون حجة على الدنيا، إذ يمكن لأي مدّع أن يقول إني أحفظ هذا الكلام الذي نـــزل عليّ كما هو.

ولو قيل هذا الخطاب يشمل النبي ﷺ والصحابة، فهذا أيضًا ليس صحيحًا، إذ كيف يكون عدم نسيان الصحابة للقرآن الكريم دليلا على بقاء القرآن محفوظا للأبد؟ إنما الدليل ما يُفحم المعارض ويُقنعه، ولكن كيف يمكن إقناع المعارض بالقول إني لم أنسَ القرآن كما لم ينسه صحابتي، إذ يمكنكم أن تسمعوه مني ومنهم؟ لأن المعارض سيقول: صحيح أنك وصحابتك تحفظون القرآن عن ظهر قلب الآن، ولكن كيف يثبت من ذلك أنه سيظل محفوظا للأبد؟ إذ من الممكن أن يحفظه صحابتك، ولكن ينساه من يأتون بعدهم. فهذا ليس دليلا يقنع المعارض فيما يتعلق بحفظ القرآن الكريم. نعم يمكن أن يطمئن بهذا الدليل مَن كان إيمانه كإيمان العجائز، ولكن القرآن ليس للمؤمنين فقط، بل يُعرَض على الأعداء أيضا، وإن الله تعالى نفسه قال في مستهل هذه السورة ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾.. أي يا محمد، أثبتْ للناس نـــزاهة صفات ربك عن كل نقص وعيب، فما دام القرآن قد نـــزل ليُعرَض على الدنيا كلها، فلا يمكن أن يقدِّم الرسول ﷺ من الأدلة على صدقه إلا ما يكون حجة على المعارضين، وليس ما يُطمْئِنُ به قلوبَ المؤمنين فقط، أما القول إن الخطاب هنا موجَّه إلى الرسول ﷺ وأصحابه فليس دليلا يقيم الحجة على المعارضين؛ لذا فلا بد أن يُفسَّر قوله تعالى ﴿فَلا تَنْسَى﴾ بما يتفق مع عظمة القرآن وشأنه، وبما تؤيده الآيات الأخرى أيضا؛ وليس سبيله إلا أن نقول إن الخطاب هنا ليس موجها إلى الرسول ﷺ فقط، بل إليه وإلى أتباعه كلهم أجمعين، والمراد أننا سنعلّمكم كلامًا لن تنسوه إلى يوم القيامة، بل سيظل محفوظا كما هو الآن.

ومن الأدلة على هذه الدعوى أنّ ألدّ أعداء الإسلام أيضا يقرّون علنًا أن القرآن الكريم محفوظ اليوم تمامًا كما عرضه محمد ﷺ في وقته. فقد اعترف "نولدكه" و "سبرنغر" و "وليام موير" في كتبهم قائلين: ليس هناك كتاب سماوي نستطيع القول قطعًا ويقينًا إنه لا يزال محفوظا حتى اليوم كما قدَّمه مؤسسه إلا القرآن. إنه الكتاب الوحيد الذي يمكن القول حتمًا وجزمًا إنه لا يزال محفوظا كما قدّمه محمدٌ

لأصحابه. ولما كان هؤلاء المستشرقون لا يصدّقون أن القرآن من وحي الله تعالى، بل يعتبرونه من تأليف محمد (رسول الله ﷺ)، فلا يستطيعون القول إنه لا يزال محفوظا كما نـــزل من عند الله تعالى، ولذلك يقولون إنه لا يزال محفوظًا في الدنيا كما عرضه محمد على الناس. فقال السير وليام موير بعد أن ساق عدة أدلة في كتاب له:

"إن هذه الأدلة تُقنع تمامًا أن القرآن الذي نقرأه اليوم هو بنصّه وفصِه نفسُ ما قرأه النبي على الناس". (The Quran, its composition and teachings p:40)

وقال في كتاب آخر: "من الممكن جدًّا أن يكون القرآن من اختراع محمد (ﷺ)، وربما أحدث فيه تغييرا وتعديلا، إلا أنه مما لا شك فيه أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو نفس ما أتانا به محمد". (حياة محمد ص ٥٦٢)

وقال أيضًا: "نستطيع الجزم – بناءً على قياسات قوية – أن كل آية من القرآن الذي بين أيدينا هي آية أصلية غير محرفة، وهي هي كما أوردها محمد (ﷺ)". (المرجع السابق)

وأما نولدكه فقال: "من الممكن أن يتضمن القرآن أخطاء إملائية بسيطة، ولكن فحوى المصحف الذي قدّمه عثمان (رضي الله عنه) للعالم هو نفس ما عرضه محمد (ﷺ)، وإنْ كان ترتيبه يبدو غريبًا جدًّا في بعض الأحيان. لقد فشلتْ تمامًا محاولات العلماء الأوروبيين في إثبات أي تحريف في القرآن فيما بعد". (الموسوعة البريطانية، تحت: القرآن)

باختصار، يعترف المستشرقون أنه لا مجال للشبهة في القرآن الكريم مطلقا فيما يتعلق بحفظه الظاهري، بل هو نفس الكتاب الذي قرأه محمد (رسول الله ﷺ) على الناس لفظًا لفظًا.

فما أعظمَها من نبوءة وردت في كلمة وجيزة ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾!

ثم لا يغيبنّ عن البال أن هذه النبوءة قد أُدليت حين لم يؤمن برسول الله ﷺ إلا بضعة أفراد، وكان العالَم يعارضه ساعيًا لمحو أثره من وجه الأرض، ولم يكن حوله ﷺ الآلاف والملايين من المؤمنين، فيُظَنّ أنه برؤية هذه الجموع الغفيرة حوله أعلن

أن من المحال الآن أن يقدر أحد على محو هذا الكتاب. الواقع أن النبي ﷺ أنبأ بذلك في وقت كان فيه عرضة لكل هجوم، وكان أصحابه يُعَدّون على الأصابع، فأعلن في هذه الحالة الضعيفة والوقت الحرج أن القرآن سيبقى في الدنيا إلى الأبد، ولا يقدر أحد على محو أثره. لقد حُرِّف كتاب الفيدا الهندوسي رغم وجود ملايين المؤمنين به، وتعرضت التوراة للتحريف رغم وجود ملايين المؤمنين بها، وطالت يد العبث الإنجيلَ رغم وجود ملايين المؤمنين به، ولقد حُرّفت كُتب زرادشت رغم وجود الملايين من أتباعه؛ ولكن شخصا -لم يكن معه إلا ثمانون أو تسعون شخصا، وفي بلد لم يكن فيه أية وسائل لحفظ كتابه إذ لم يكن به مكتبات ولا رواج للتعليم- أعلن أن كتابه سيظل محفوظا وباقيا إلى يوم القيامة، ولن تقدر الدنيا على تغيير أي حركة فيه. لو كان أهل مكة يقرؤون ويكتبون لقيل لعلّ محمدا (ﷺ) قام بهذا الإعلان نظرًا إلى كفاءة أتباعه العلمية، ولكن انظروا إلى عجائب قدرة الله تعالى؛ حيث ظهر الإسلام في قوم لم تَرُجْ بينهم الكتابة والقراءة، إذ لم يكن بين الصحابة الأوائل في مكة ممن يعرف القراءة والكتابة إلا ثلاثة أو أربعة أو سبعة على الأكثر، ولم يتجاوز عدد جماعته كلها الثمانين أو التسعين، ورغم هذه الحالة من الضعف أعلن الله تعالى لرسوله: سنقرئك القرآن فلا تنساه؟! فكأنما قال الله تعالى لنبيه ﷺ: أما الآخرون فلم نقرئهم قراءة خاصة، وأما أنت فقد تجلَّينا عليك بربوبيتنا العليا، فنعطيك درسًا أعلى لن تنساه.. أي سيبقى الكتاب الذي أنـــزلناه عليك محفوظًا إلى الأبد. ما أعظمَ هذه النبوءة وأقواها!

ثم انظروا كيف هيّأ الله الوسائل والأسباب لحفظ القرآن الكريم، ليس حفظًا روحانيا فحسب، بل حفظًا ظاهرا أيضا، وفيما يلي بيانها:

الوسيلة الأولى: إن أول الأسباب التي هيأها الله لحفظ القرآن الكريم هو وقوع الاختلاف بين المسلمين بعد وفاته ﷺ فورًا. فلو ظلّ حزب موحَّد منهم حاكمًا على الناس فكان هناك خطر أن يضعف إيمانه في وقت من الأوقات، فيُخرج من القرآن الكريم الآيات التي تعارض أهواءه؛ ولكن بعيْد وفاة النبي ﷺ فكّر الأنصار أنهم أَولى بالخلافة، بينما رأى المهاجرون أنهم أحقُّ بها، وهكذا وقع بين المسلمين

اختلاف وخصام، مما جعل بعضَهم رقيبًا شديدًا على بعض. تروْن كم بيننا وبين الأحمديين غير المبايعين من اختلاف اليوم. لا شك أنه أمر مؤلم، ولكنه جعل كلا الفريقين يراقب بعضه بعضا، وكلما حصل منهم خطأٌ تصدّينا لهم وقلنا: كلا، بل إن المسيح الموعود عليه السلام قد كتب خلاف ما تقولون. كذلك كان الله تعالى قد جعل بين المسلمين نوعًا من الرقابة بعد وفاة الرسول ﷺ فورًا، مما جعل كلا الفريقين منهم رقيبًا على تصرُّفات الآخر، فلم يجرؤ حتى أضعف المسلمين إيمانًا على أن يُحدِث في القرآن الكريم أدنى تحريف.

ثم جعل الله تعالى الشيعة والسنة يختلفون في زمن الصحابة. ثم ظهرت طائفة الخوارج. علمًا أن المسلمين تفرقوا إلى شيعة وسنة في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه، وكان عبد الله بن سبأ الذي قد أحدث فتنة كبرى في الإسلام في عهد عثمان رضي الله عنه متأثرا بالأفكار الشيعية. إذن، قد بدأ النـــزاع بين السنة والشيعة بعد وفاة النبي ﷺ بأربع وعشرين سنة، حين كان الآلاف من الصحابة لا يزالون أحياء، ثم ظهرت فتنة الخوارج بعد وفاته ﷺ بحوالي ٣٢ سنة. وهذه الفِرق الثلاث كلها كانت تؤمن بالقرآن الكريم؛ وهكذا أصبحت بعضها رقيبة على بعض، مما كان وسيلة عظيمة لحفظ القرآن الكريم حفظًا ظاهرًا.

بالإضافة إلى ذلك جعل الشيعة يعتقدون أن جزءًا من القرآن الكريم كان في حوزة علي رضي الله عنه، ولكنه لم يُظهِره للناس، وأنه الآن مع الإمام الغائب، الذي سيأتي به عند ظهوره في العالم. أليس غريبًا أن يهاجم الشيعة القرآن الكريم قائلين إن عشرة أجزاء منه موجودة عند الإمام الغائب، ومع ذلك يعترفون أنه لم يُنقَص من المصحف الموجود أية آية، بل إن كل لفظ منه هو هو كما نـــزل على الرسول ﷺ من عند الله تعالى.

أما قول الشيعة إن عشرة أجزاء من القرآن الكريم مفقودة، فجوابه أن الأمر لو كان كما يظنون لما كان القرآن كتابا كاملا من حيث الأحكام الشرعية، بل لا بد أن يفتقر إلى أحكام كثيرة، فتكون بعض المسائل الدينية فيه ناقصة، وتكون بعض القضايا المَدنية بدون حلّ، وتعوزه بعض الأحكام المتعلقة بالعبادات، لأن "الأجزاء

العشرة المفقودة" منه لا بد أن تكون محتوية على بعض أحكام الدين؛ فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: ما هي تلك الأحكام المفقودة من القرآن الكريم؟ فإن ما نراه على صعيد الواقع أنه ما من تعليم دينيّ إلا وذكره الله تعالى في القرآن، وما من قضية مَدنية إلا ويقدم القرآن حلاً لها، وما من حُكم يتعلق بالعبادات إلا وهو مذكور فيه، مما يدل على كونه متكامل كل الكمال ولا يوجد فيه أدنى نقص من حيث تعاليمه وأحكامه وأوامره ونواهيه. فثبت أن القول بفقدان عشرة من أجزائه باطل تمامًا، إذ لو كانت مفقودة لوُجد فيه نقص فيما بيّنه من أحكام الشرع وقضايا الدين، ولكنا لا نرى فيه أي شيء كهذا، كما ليس بوسع الشيعة إثبات أي نقص فيه. وما داموا يشهدون على كمال المصحف الحالي ولا يستطيعون إثبات أي نقصان فيه، فقد بطلتْ دعواهم تلقائيا.

باختصار، لقد دبّر الله لحفظ القرآن ظاهرًا أنْ جعَل المسلمين يختلفون فيما بينهم بعد وفاة الرسول ﷺ فورا، فأصبح فريقٌ رقيبا على الآخر، ولم يستطع أي منهما التلاعب بالقرآن الكريم.

والوسيلة الثانية. قد هيّأ الله للقرآن الكريم كثيرًا من الحفّاظ والقرّاء بما لم يسبق له مثيل في تاريخ الأديان كلها. إن القرآن ليس أوّلَ كتاب سماوي نـــزل إلى الدنيا، إذ نزلت قبله كتب سماوية عديدة، ومع ذلك لم يُقدَّر لأيٍّ منها أن يحفظه المؤمنون به، أما القرآن الكريم فيوجد اليوم مئات الآلاف مِن حفظته، فيستطيعون قراءة كل حرف ولفظ منه من بدايته حتى نهايته عن ظهر قلب. خلال زيارتي لإنجلترا عام ١٩٢٤ قال لي البعض: لقد مضى على نـــزول القرآن ثلاثة عشر قرنًا، ثم لم يكن عند نـــزوله رواج للكتابة، فلا يمكن الجزم أن هذا القرآن الذي هو بين أيدينا هو نفس ما عُرض على الناس قبل ١٤ قرنا. وكان عمر ابني ناصر أحمد عندها ١٥ سنة وكان قد ختم حفظ القرآن، فقلت للمعترض: لا شك أنه لم يكن للكتابة رواج عند نزول القرآن الكريم، ولكن كان عندها حُفّاظ يحفظونه عن ظهر قلب، فكان ينتقل من صدر إلى صدر جيلا بعد جيل. فقال: ومَن يقدر على حفظ هذا الكتاب الضخم؟ قلتُ: كان العرب شهيرين في الدنيا بقوة ذاكرتهم؛ إذ

كان أحدهم يحفظ مئات الآلاف من الأبيات، فلم يكن حفظ القرآن صعبًا عليهم. ودَعْك من العرب، فإن ابني البالغ الخامسة عشرة من عمره أيضا يحفظ القرآن كله. فاحتار الرجل وقال: كيف تمكّنَ من حفظ هذا الكتاب الضخم؟ قلت: لدينا رواج عام لحفظ القرآن الكريم، حيث يحفِّظه الآباءُ أولادَهم مِن فرط حبهم له مؤمنين بأن هذا مدعاة لرضى الله تعالى. والأوروبيون محرومون من هذه النعمة، فليس بوسعهم أن يفهموا كيف يحفظ أحد هذا الكتاب الضخم؟ إن رواج حفظ القرآن بين المسلمين كان كبيرًا حتى استُشهد في زمن النبي ﷺ سبعون حافظًا في غزوة واحدة. وقد قال المسيح الموعود عليه السلام أنه كان في بلاط جَدِّه ميرزا گُل محمد خمسمئة حافظ للقرآن الكريم. مما يعني أن كثيرًا من الجنود والحرفيين عنده كانوا حفّاظًا للقرآن الكريم. لا شك أن المسلمين في هذا العصر يمرّون بفترة ضعف وانحطاط شديدين، ومع ذلك تجد في الهند وحدها مئات الآلاف من الحفاظ.

فالوسيلة الثانية التي اتخذها الله لحفظ القرآن هي كثرة القراء والحفاظ، وهذا ليس بمقدرة أي إنسان، بل الله تعالى وحده مَن جعل الناس يرغبون في حفظه، فحُفظ في صدور مئات الآلاف لفظًا لفظًا بل حركة حركة.

والوسيلة الثالثة: اعلم أن من الكلام ما يُحفَظ بسهولة، ومنها ما ليس كذلك؛ وقد أنـــزل الله تعالى القرآن الكريم بعبارة تبدو كالشعر وهي ليست بشعر بل هي أقرب إلى النثر، وحفظها سهل جدا. خُذْ أيًّا من الأولاد وضعْ بيده صفحة فيها عبارة بلغة أردية، وصفحة فيها آيات من القرآن الكريم، وقُلْ له أن يحفظهما، فستجد أنه سيحفظ القرآن بسرعة، ولكنه سيجد حفظ العبارة الأردية صعبًا جدا؛ ولو طلبت منه بعد مضيّ وقت قراءة ما حفظه مرة أخرى، لوجدتَ أنه لن يستطيع أن يعيد لك سطرًا واحدًا من العبارة الأردية، ولكنه سيقرأ عليك ما حفظه من القرآن بشكل جيد. فالله تعالى قد صاغ هذا الكلام صياغة سهُل بها حفظُه كثيرًا. لقد قرأتُ قبل أيام لكاتب أوروبي قوله إن الكتّاب الأوروبيين يخطئون في ترجمة القرآن لأنهم لا يدركون أسلوبه وبالتالي لا يراعونه عند الترجمة. إن أسلوب عبارة القرآن رائع جدا، فلا هو شعر ولا نثر، بل هو شيء مختلف تماما؛ ولأن هؤلاء لا

يفهمون أسلوبه هذا، فيتعثرون في بيان ترجمة معانيه. ثم يقول هذا الكاتب إن الذي يحاول فهم نص القرآن واستنباط المعاني من ترجمته هذه، مَثَلُه كمَثل شخص يحوّل جمل كتاب المزامير إلى نثر، ثم يحاول فهم معانيه من هذه الترجمة المنثورة. ذلك أن أسلوب المزامير كأسلوب شعر، فيقول هذا الكاتب لو تُرجم المزامير نثرًا فلن يفهم أحد من هذه الترجمة فحوى المزامير، كذلك فقد صيغَ القرآن بعبارة رائعة بحيث لو تُرجم إلى النثر البحت لم يُدرك عقل الإنسان من هذه الترجمة النثرية معانيه الدقيقة.

خلاصة القول لقد صاغ الله تعالى القرآن الكريم صياغة جعلتْه أسهل للحفظ من أي كلام آخر. إنه ليس بنثر ولا بشعر، بل شيء مختلف يساعد على حفظه بوجه خاص.

الوسيلة الرابعة: ومن الوسائل التي ساعدت على حفظ القرآن الكريم حفظًا ظاهرا انتشارُ علم الكتابة والقلم بين المسلمين بكثرة بما لا مثيل له في الأمم السابقة. فبمجرد أن ظهر النبي ﷺ حتى صار للقلم رواج بين المسلمين بما لا نظير له في تاريخ العالم. ولم ينصرم قرن ونصف فقط على وفاة النبي ﷺ حتى انتشرت الكتب انتشارا كبيرا حتى وُجدت في بعض المدن ٢٠٠ مكتبة وفي كل واحدة منها ٦٠٠ ألف كتاب. يقول الأوروبيون اليوم إن الانتشار الحالي للكتب راجع إلى اختراع المطابع، ولكن السؤال هنا: كيف راجت الكتب بين المسلمين بهذه الكثرة قبل اختراع المطابع؟ لا جرم أن ذلك كان تحقيقًا للنبوءة القرآنية الواردة في قوله تعالى ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق: ٥-٦). عندما كان المسلم يتعلم الكتابة، فإن أول ما يكتبه هو القرآن الكريم تبركًا به. كان الملك المغولي "أَوْرَنْغزيب" يكتب شيئا من القرآن الكريم تبركًا كل يوم. باختصار، قد راجت الكتابة بين المسلمين رواجًا كبيرًا حتى كُتبتْ كل كلمة من القرآن ملايين المرات، وهكذا نشره الله تعالى في مختلف البلاد والأمصار.

رب قائل يقول: إن تدوين القرآن قد تم بعد فترة طويلة، وليس في البداية! وأود أن أوضح هنا أن هذه الشبهة باطلة، إذ كان عند المسلمين الأوائل رواج كبير لكتابة القرآن الكريم، حتى ورد في التاريخ أنه عندما نشبت الحرب بين علي

ومعاوية – رضي الله عنهما – جاء أصحاب معاوية في أثناء القتال معلقين ٥٠٠ مصحف على رماحهم قائلين: نحن نحكّم القرآن للفصل بيننا، فتعالوا نحتكم إليه ونرضى بقراره. فانخدع بعض الأغبياء من جنود عليّ ﷺ وتمرّدوا عليه قائلين: ما دام هؤلاء يحكّمون القرآن الكريم فيما بيننا فلماذا نحاربهم؟ نحن لا يهمنا هنا مآل هذا الحادث، إلا أنه يكشف لنا بجلاء أن المسلمين كانوا يكتبون القرآن بكثرة منذ البداية، إذ وُجد في جيش معاوية وحده ٥٠٠ مصحف على الأقل، مع أن عدد المقاتلين في الجيشين لم يكن أكثر من عدة آلاف. مما يؤكد أن آلافًا من نسخ القرآن الكريم كانت موجودة يقينًا حتى ذلك الوقت على الأقل، وكان المسلمون يحتفظون بها في السفر والحضر. إذن، فكانت الكتابة إحدى الوسائل التي حفظ الله بها القرآن الكريم حفظًا ظاهرا.

الوسيلة الخامسة: هي انتشار الإسلام منذ البداية في شتى البلاد، وصل الإسلام في حياة الصحابة ﷺ إلى الشام والعراق وفلسطين وأنطاكية وإيران ومصر وشتى المناطق الإفريقية، حتى وصل الصحابة إلى الصين والهند وأشاعوا فيهما الإسلام. توجد في منطقة السند – التي تقع فيها ضياعنا – قرية اسمها "ديه صابو".. أي قرية الصحابة. وفيها قبر يقال إنه قبر صحابي، ويشهد التاريخ أيضًا أن بعض صحابة الرسول ﷺ قد وصلوا الهند فعلا، مما يؤكد ما شاع عن هذا القبر أنه قبر صحابي. ورغم أننا لا نملك شواهد قطعية على هذه الروايات إلا أنها –مهما ضعفتْ– تُروى منذ الزمن القديم، وتؤكد أن الصحابة قد خرجوا منذ أوائل الإسلام من الجزيرة إلى الأقطار الأخرى ونشروا فيها الإسلام، وكانوا يحملون معهم نسخ القرآن الكريم، وهكذا نشر الله تعالى في فترة وجيزة آلاف النسخ منه في شتى أنحاء العالم، فحفظتْه شتى الشعوب. فهذه إحدى الوسائل التي اختارها الله تعالى لحفظ القرآن حفظًا ظاهرا.

الوسيلة السادسة: لقد انتشرت اللغة العربية في مختلف البلاد والأقطار منذ صدر الإسلام، مما ساعد سكّانها على فهم القرآن مباشرة بدون اللجوء إلى ترجمته. ولو فرضنا –جدلاً– أن عرب الحجاز أرادوا تحريف القرآن الكريم لمصلحة ما، لما تجاسروا عليه وما استطاعوه، لأن أهل فلسطين والعراق والشام ومصر وغيرها من

البلاد كانوا يراقبونهم. إذن، فبانتشار اللغة العربية في مختلف البلاد أصبحت مختلف الشعوب مسؤولة عن حفظ القرآن الكريم، فحالوا دون تسرب أي تحريف إليه.

وهذه الوسائل الستّ لم تتيسر لصحيفة أيِّ أُمة من أمم العالم، إنما جعلها الله تعالى من نصيب القرآن الكريم فقط. إذًا فقوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى﴾ جاءَ ردًّا على الذين يقولون كيف نصدّق كون القرآن هو القول الفصل؟ ولم لا نقول إنه كتاب كامل ولكن بشكل مؤقت، وسيحل محله كتاب آخر في المستقبل؟ يقول الله تعالى لا يمكن أن يأتي بعده كتاب آخر؛ فإن وعْدنا بحفظه، ثم إيجادنا شتى الوسائل لحفظه لدليلٌ قاطع أننا نريد بقاء هذا الكتاب إلى يوم القيامة. الواقع أنه لو أراد الله تعالى إلغاء هذا الكتاب كالصحف السابقة، لتركه يتعرض للعبث والتحريف والفساد، ولم يهيئ لحفظه الأسباب، ولكنه تعالى لم يدَعْه يفسد، لأنه كتاب ذو نفع أبديّ، والشيء الذي فيه منافع أبدية لا يفنى بحسب القانون الرباني المذكور في قول الله تعالى ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾(الرعد:١٨).. أي أن الأشياء النافعة تبقى في الأرض بحسب سنة الله المستمرة. وحيث إن القرآن قد حُفظ بوجه خاصّ، فهذا دليل أنه نزل ليبقى في الدنيا، ولن يصبح منسوخًا أو غير صالح للعمل أبدًا.

وبقي سؤال آخر: إذا كان هذا الكتاب سيبقى للأبد، فما الحاجة لبعثة مبعوث بعده؟ وقد أجاب الله عليه في الآيات التالية.

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧

التفسير: قام المفسرون بتفسير هذه الآية بغير المعنى الذي ذكرتُه، فواجَهوا مشكلة كبيرة، حيث حيّرهم قوله تعالى ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فهل المراد منه أن بعض القرآن سوف يُنسى ويُمحى؟ وقد أتوا بأقوال لحلّ هذه المشكلة، فقال بعضهم أن قوله تعالى ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إشارة إلى الآيات المنسوخة من القرآن الكريم. (البحر المحيط تفسير سورة الأعلى)

ولكنه كلام غير سليم، لأن الآيات التي يعتبروها منسوخة لا تزال موجودة في المصحف، أما الآيات التي يعتبروها منسوخة التلاوة فهي موجودة في التفاسير حتى اليوم؛ بينما قال الله تعالى هنا ﴿فَلا تَنْسَى ۞ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.. أي أن الآيات التي يريد الله لها أن تُنسى ستصبح نسيًا منسيًا؛ وما دامت الآيات -المنسوخة في زعمهم- موجودة في المصحف أو في التفاسير فكيف يقال إنها قد نُسيت؟ علمًا أننا لا نؤمن بنسخ أي آية من القرآن الكريم، إنما عقيدتنا أن كل لفظ من القرآن صالح للعمل به، فما قلتُه الآن إنما قلتُه بالنظر إلى عقيدة القائلين بالناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، مؤكدًا أن استدلالهم غير صحيح، لأن الله تعالى قال أولاً ﴿فَلا تَنْسَى﴾، ثم أعقبَه بقوله ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، والنسخ ليس هو النسيان أوّلاً، وثانيًا ما دامت كل "الآيات المنسوخة" لا تزال في القرآن الكريم أو التفاسير، فكيف يقال أنها نُسيت؟ إن الواقع يكشف أن كلها موجودة كما هي، ولم ينسها أحد، فكيف يستقيم هذا المعنى؟

بينما قال البعض إن قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى ۞ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يعني أنك ستنسى القرآن على سبيل الشاذ والنادر القليل ما شذ وندر، ولكنا سنذكّرك به. (البحر المحيط، تفسير سورة الأعلى)

وهذا المعنى أيضًا لا يستقيم، لأن النسيان نادرًا وشاذًا أيضًا نوع من النسيان، وإذا كان النبي ﷺ سيذكره فيما بعد فلا يُعتبر نسيانا.

ثم لما كان القرآن الكريم يُقرأ على الجميع ويُكتَب فور نـــزوله، فكيف يمكن أن يُنسى جزء منه ولو على سبيل الشاذ والنادر؟

وقال البعض إن الأصل: فلا تنسَ، فالجملة نهيٌ لا نفيٌ. (البحر المحيط، تفسير سورة الأعلى)

ولكن هذا التأويل بعيد عن أساليب العربية.

وقال البعض إن (إلا) هنا بمعنى النفي، لأن العرب تعني النفي أحيانا باستعمال لفظ القلة؛ كقولهم: إلا قليلا.. أي لا، قطعا. فالمعنى أنك لا تنسى إطلاقا. (الكشاف، تفسير سورة الأعلى)

ولكن هذا التأويل باطل، لأن (إلا) تأتي بمعنى النفي إذا كان بعدها لفظ يدل على القلة. ولكن الله تعالى قد ذكر هنا بعد ﴿إلا﴾ موضوع مشيئته، لا أي لفظ يدل على القلة.

أما الزمخشري فقال إن قوله تعالى ﴿فَلا تَنْسَى ۞ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ليس فيه أي استثناء، وإنما هو نفيٌ تامّ للنسيان، ومثاله قولك لصاحبك: "أنت سَهيمي (أي مُشاركي) فيما أملكُ إلا ما شاء الله".. إذ ليس هنا أي استثناء، كذلك ليس في قوله تعالى ﴿فَلا تَنْسَى ۞ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي استثناء. (الكشاف، تفسير سورة الأعلى)

ولكن العلامة أبا حيان صاحب "البحر المحيط" الذي هو من كبار علماء الصرف والنحو قد انتقد قول الزمخشري هذا واعتبره غلطًا فقال: لا يصحّ أن يقال عن كلمات وردت في وحي الله تعالى أن لا مفهوم لها ولا معنى. فهذا لا يقال عن كلام أي من الفصحاء البلغاء، فما بالك بوحي الله تعالى؟ لو كانت جملة ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ كلام إنسان، فيمكن القول إنه يريد الإقرار بعجزه وضعفه أمام عظمة الله وقوته وغناه، أي أنه ينوي كذلك، لكنه لا يضمن لأنه لا يعرف مشيئة الله، ولكن الله تعالى نفسه يقول هنا ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فهذا وحي الله تعالى لا كلام البشر... فكيف يقال عنه أنه لا معنى له، وأنه بيان لغى الله تعالى؟ فهل الله ﷻ أيضا يعبِّر عن عجزه كما يفعل البشر بمثل هذه الكلمات؟

ويرى صاحب "البحر المحيط" أن الإشارة هنا إلى الآيات المنسوخة. كما قال أيضا أنه قد يراد بها النسيان الذي كان يصدر أحيانا من الرسول ﷺ لحكمة ربانية لكي تظهر أسوته ﷺ للأمة في مختلف القضايا والأحكام.

باختصار، لقد حاول المفسرون تفسير هذه الآية بأقوال مختلفة، ولكنها كلها باطلة كما بينتُ، وقد رفض بعضهم قول بعض. يجب أن تُفسَّر هذه العبارة بما ينسجم مع السياق ويتفق مع عظمة القرآن وسموّ شأنه.

الواقع أن النسيان نوعان، نسيان اللفظ ونسيان المضمون، لأن نسيان شيء له مفهومان: أولهما نسيان ظاهر ذلك الشيء، أي نسيان الكلمات المحفوظة، أو

الصورة التي كانت مستحضرة في الذهن؛ وثانيهما نسيان حقيقة ذلك الشيء ومضمونه. فمثلا يحفظ الإنسان بيت شعر فينساه بعد فترة، فإذا سئل عنه قال: قد نسيتُه.. يعني أنه نسي كلمات ذلك الشعر، ولكن أحيانًا يكون هناك بيت شعر ذو معنى تافه ويكون محفوظًا في ذاكرة المرء، ولكن إذا سألته ما إذا كان يحفظه قال: قد نسيته؛ ولا يعني بذلك أنه قد نسي كلماته، بل يعني أن لا يعنيه مضمونه، وأنه قد تناساه. وأحيانًا يسأل المرء صاحبَه عن حال صديق له، فيجيب قد نسيته؛ ولا يعني ذلك أنه نسي صورته أو اسمه -إذ إن صاحبه يذكر اسمه، وصورتُه مستحضرة في ذاكرته - وإنما يعني أنه لم يعُدْ على صلة معه الآن.

فثبت من هنا أن النسيان لا يعني نسيان الكلمات فقط، بل يعني نسيان الحقيقة والمضمون. وهناك مثال على ذلك في القرآن حيث يقول الله تعالى عن آدم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾(طه:١١٦).. فالتأكيد على نسيانه وعلى عدم عزيمته إنما يعني أنه لم يفعل ما فعل بقصد، وليس المراد أنه فاته حُكْم الله، إذ الثابت من آيات أخرى أنه عليه السلام لم يكن قد نسيه، بل كان يذكره جيدا، بل يخبر القرآن أن الشيطان نفسه قد ذكَّره بحكم الله هذا، حيث ورد أنه جاء إلى آدم وأغواه بقوله ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف:٢١-٢٢). فترى هنا أن الشيطان جاء لآدم وذكّره بما أمره الله به، ولكنه وسوس له أنه لا ضرر لو خالفت أمر الله تعالى من أجل أن تكون ملَكًا وتنال حياة الخلود، بل هذا خير لك في نهاية المطاف. وحلف له أن كلا الأمرين في صالحك؛ لأن الله تعالى لم يَنْهَك عن ذلك إلا ابتلاءً وامتحانًا، فلو صرت مقربًا إلى الله، ولو نلت حياة الخلود فهو خير لك، لأنك تزداد ذكرًا لله وقربًا منه وحبًا له على الدوام. فلم ينهك الله إلا مؤقتا ليختبرك، وليس نهيًا أبدا. كل هذا يكشف أن آدم عليه السلام لم ينس أمر الله تعالى، وليس هذا فحسب بل عندما أراد مخالفة أمره تعالى ذكّره الشيطان بذلك حالفًا مُوَسوسًا له أن لا يخاف من مخالفة أمره تعالى إذ ليس هناك نعمة أفضل من أن يكون ملِكًا وينال حياة الخلود، ويحظى بقرب الله

تعالى الذي هو غاية خلق الإنسان؟ وما دامت غاية خلق الإنسان هي الفوز بقرب الله تعالى، فثبت أن هذا النهي كان مؤقتًا وليس أبديا. هذا ما قاله الشيطان لآدم، وبعد سرد هذا الحادث يقول الله تعالى ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾.. مع أن كلمات الآية نفسها تؤكد أن آدم لم ينسَ أمر الله، فثبت أن النسيان هنا لا يعني نسيان كلمات الحكم الإلهي، بل نسيان أهميته، حيث غضّ آدمُ الطرف عن مضمون النهي الإلهي.

والاستثناء في قوله تعالى ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسَى ۞ إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يشير إلى النوع الثاني من النسيان.. ولما لم يكن الخطاب موجهًا إلى الرسول ﷺ، بل إلى أمته كما بينتُ من قبل، فالمراد أن أمتك لا تنساه إلا ما شاء الله أن تنساه، بمعنى أنه سيأتي على المسلمين زمان يحفظون فيه القرآن لفظًا ولكن ينسونه مضمونًا.. سيحافظون على كلمات القرآن ولكن ينسون روحها مثلما فعل آدم عليه السلام. وإلى هذا المعنى نفسه قد أشار الرسول ﷺ بقوله: "يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه" (شعب الإيمان للبيهقي).. أي سيأتي على المسلمين زمان لا يبقى بينهم من القرآن إلا كلماته، أما روح الإيمان والإسلام فلن يبقى فيهم. وهذا ما ذكره الله تعالى هنا في الاستثناء المذكور في قوله ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، فأخبر أنكم، أيها المسلمون، لن تنسوا القرآن من ناحية، وستنسونه من ناحية أخرى؛ ولا يعني ذلك أن سورة الأعراف -مثلاً- لن تندثر من القرآن بينما تندثر سورة المائدة منه، وأن سورة الكوثر لن تنمحي منه، بينما تنمحي سورة الناس منه، بل المراد أن كلمات القرآن لن تنمحي، ولكن مضمونه سيختفي من بين المسلمين.

إذًا، فهذا الاستثناء لا يتعلق بكلمات القرآن الكريم وحفظه الظاهري، إنما بحفظه المعنوي، وهكذا قد ردّ الله على اعتراض البعض أن القرآن إذا كان هو القول الفصل فما الداعي لبعثة مأمور بعده؟ فأخبر سبحانه وتعالى أن وعده بحفظ نص القرآن الكريم سيتم دائمًا بلا فاصل، أما وعده بحفظ فحوى القرآن ومضمونه فسيتمّ إلى يوم القيامة ولكن بفاصل. فعندما يرى الله تعالى أن الناسَ صاروا غير صالحين سيرتفعُ

مضمونُ القرآن ولبُّه من بينهم، فتمس الحاجة إلى أن يبعث الله تعالى مأمورًا من عنده لينـــزل بلُبِّ القرآن ثانية.

أما قوله تعالى ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ فقد بين الله تعالى فيه سبب اختفاء لُبِّ القرآن وروحه من الدنيا في وقت من الأوقات، فلا يبقى عند الناس إلا كلماته فقط، فأخبر أنه تعالى أعلم بحالة ظاهر الناس وبما في صدورهم، فطالما ظل المسلمون صالحين في ظاهرهم وباطنهم ظل القرآن محفوظا في ظاهره وباطنه أيضا، وإذا صاروا مسلمين في الظاهر فقط، وفسد باطنهم، فسيحفظ الله القرآنَ في ظاهره فقط، وسيختفي باطنه ولبُّه من بينهم. إن الله تعالى يعلم الظاهر والباطن، فحين تخلو قلوب المسلمين من الإيمان، فلماذا يفتح الله عليهم معارف القرآن؟ القرآن نور، والنور لا ينكشف إلا على النورانيين، فمن المحال أن يطّلع على معارفه مَن فسدت أعمالهم وخلت قلوبهم من الإيمان.

إذن، فقوله تعالى ﴿إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يرسم حالة المسلمين في الزمن الأخير، حيث أخبر الله تعالى أنه سيأتي عليهم زمان يحفظون فيه كلمات القرآن وينسون العمل به، وليس المراد أنهم ينسون ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مثلا، بل المراد أنهم سيقولون الحمد لله بلسانهم، بينما تكون قلوبهم خالية من حمد الله تماما. سيردّدون كلمة الرب بلسانهم، ولكن قلوبهم ستخلو من الإيمان الكامل بربوبية الله. سيكونون مسلمين في الظاهر، لذلك سيبقى القرآن محفوظًا بينهم في الظاهر فقط، ويفقدون الإسلام في الباطن، لذلك يرتفع لُبُّ القرآن من بينهم.

باختصار، لقد بيّن الله تعالى هنا أن وعده بحفظ القرآن نوعان: وعد بحفظ لفظه ووعد بحفظ فحواه. ووعْدُه بحفظ لفظه سيتحقق بدون فاصل ولا انقطاع، فلن يأتي زمان يتطرق فيه التحريف إلى كلمات القرآن الكريم، أما وعده تعالى بحفظ فحوى القرآن، فلن يتم بتواصل دون انقطاع. لا شك أنه تعالى سيحفظ مضمون القرآن إلى يوم القيامة، ولكن على فترات وليس بالتواصل، فكلما فسدت الأمة بعث نبيًا من عنده، وإذا فسدت مرة أخرى بعث نبيا آخر.

إذًا فقد تناولت هذه الآية الرد المفصل على الاعتراض الذي أُثيرَ من قبل وهو: ما الحاجة إلى الوحي أو بعثة مأمور بعد نزول "القول الفصل"؟ فبيّن الله تعالى أن شريعة القرآن ستظل محفوظة في ظاهرها إلى الأبد، فلا حاجة لإنـــزال أي كتاب بعده، ولكن الفساد يتطرق إلى باطن هذا الكتاب فلا بد من بعثة أنبياء ومأمورين من عند الله تعالى يكشفون للناس بتأييده معاني القرآن ومعارفه، ويذكّروهم بما نسوه، ويقومون بحِفْظه معنويًا. لو لم يتطرق الفساد إلى المسلمين، لما كان هناك داع لبعثة أي مأمور، ولكن فسادهم مقدّر بعد مرور فترة من الزمان، حيث تنمحي حقيقة الإسلام من بين الناس فلن يكونوا مسلمين إلا بالاسم فقط، وسينسبون أنفسهم إلى القرآن، ولكن يرتفع لُبُّ القرآن من بينهم، وتسوء حالتهم جدًّا، فتمس الحاجة إلى بعثة مأمور من عند الله تعالى، ليُحيي الإسلام ويُقيم القرآن في الدنيا مرة أخرى.

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

نيسِّرك: يسَّر الشيءَ لفلان: سهَّله له ودفَعه له، يكون في الخير والشر (الأقرب).. أي يمكن أن يقال: يسَّره للعُسرى ويسَّره لليسرى.

اليُسرى: السهلُ. (المفردات)

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا رسوله ﷺ أن من التدابير التي اتخذناها لحفظ دينك أو إقامته إلى يوم القيامة أننا قد جعلنا فيه يسرًا، أي أمرنا بالأسهل من أحكام الشرع. وهذا دليل آخر قد أورده الله تعالى في سياق الموضوع السابق أعني حفظ القرآن على الدوام؛ إذ من الأسباب العديدة التي هيأها الله تعالى لحفظ القرآن ظاهرًا أنه قد راعى في تعاليمه كل طبيعة بشرية وفطرة إنسانية، فصارت صالحة ناجعة لأهل كل عصر. إذا لم يعمل الناس بالقرآن فهذا شأنهم، وإلا فليس فيه حُكمٌ أُهملَ فيه جانب من جوانب الفطرة الإنسانية، أو يشقّ عليها العمل به

حقيقةً. كلا بل إن جميع أحكام القرآن ملائمة لفطرة الناس أجمعين، كما قد قدِّمت فيه تسهيلات لصاحب كل طبيعة بحيث يسهل عليه العملُ بها. فمن هذه اليسرى مثلاً أن الله تعالى أمرنا بأداء الصلاة قيامًا، ولكنه سمح لنا بأدائها جالسين تارة، ومستلْقين تارة أخرى، وبالإشارة أيضًا؛ ولو أمرنا بأدائها قيامًا فقط، لم يستطع المريض ولا المعاق العملَ بهذا الحكم، وصار من الآثمين. فجعل الله تعالى أحكام الإسلام مَرِنةً بالنظر إلى كل وضع وطبيعة، بحيث ليس بوسع إنسان القول إنه لا يستطيع العمل بكذا وكذا من أحكام الإسلام. خُذوا مثلا الجهاد في سبيل الله، فقد حثّ الله عليه كثيرًا، ولكنه قال أيضا ليس على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على المعاق حرج ما داموا يكنّون للإسلام حبًّا ولوعةً، ويتمنون لو كانوا قادرين على الجهاد، هؤلاء سيعتبرهم الله تعالى من المجاهدين في سبيله.

باختصار، يقول الله تعالى سنأخذك أو نقرِّبك إلى يسرى أي إلى التعاليم السهلة. وهذه اليسرى هي القرآن نفسه، سواء مِن حيث كونه سهلاً للحفظ، أو من حيث كونه سهلاً للعمل به.

هنا ينشأ سؤال لا بد من الإجابة عليه، وهو أن الإسلام يأمر بأداء الصلاة خمس مرات يوميا، بينما أمر المسيحيون بالعبادة بعض الوقت مرة في الأسبوع؛ فأيهما أيسَرُ تعليمًا، الإسلام أم المسيحية؟

فليكنْ معلومًا أن من معاني اليسرى ما يسُرّ الإنسان ويُفرِحه روحانيًا وإنْ كلَّفه العناء المادي. فيقال عندنا مثلاً: الموت أيسَرُ لي مِن ترك فلان. والحق أن الموت ليس أسهل من ترك صديق، لأن غمرات الموت شديدة على جسم الإنسان، ومع ذلك نردد هذه المقولة كثيرًا، مما يعني أن فلانًا أحبُّ إليّ من حياتي. فمما لا شك فيه أن الإسلام قد أمرنا بأداء الصلاة خمس مرات يوميا، إلا أن فيها منفعة روحانية عظيمة لنا، فمن الأسهل جدًا على المؤمن أن يؤديها خمس مرات يوميًا بدلاً من العبادة القصيرة مرة أسبوعيا، إن في الاقتصار على صلاة واحدة في الأسبوع حرمانًا من قرب الله، أما الصلوات الخمس يوميا فيحظى صاحبها بمزيد من قرب الله.

فكلمة "يسرى" لا تشير إلى السهولة المادية الظاهرية، بل إلى السهولة باعتبار المنافع الروحانية.. أي حينما يرى الإنسان المنافع الروحانية يسهل عليه العمل جدًّا.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ أننا أعطيناك شريعة لا تحوي أحكامًا فحسب، بل بيّنّا حِكَمَها أيضا، فلا يشقّ العمل بها على الناس، بل تبدو لهم جِدَّ سهلة، فلا يريدون تركها. من الطبيعي أن الإنسان إذا علِم حِكمةَ حُكمٍ واتضح عليه فائدته قام به بشوق ورغبة، أما إذا لم يعلم الحكمة منه لم يعمل به رغبة منه. وهذا ما يؤكده الله تعالى هنا أننا قد بيّنّا حِكمةَ كل حُكم في هذه الشريعة، فسَهُل على الناس العمل بها جدًّا.

إذن، فلقوله تعالى ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ ثلاثة مفاهيم: أوّلُها أننا قد جعلنا القرآن سهلاً للحفظ، وثانيها أننا قد بيَّنَّا الحكمة من وراء أحكامه مما سهل على الناس العمل بها، وثالثها أننا قد جعلنا في أحكامه مرونة بما يتفق مع كل فطرة وطبيعة، إذ لم يقل الإسلام عن أي حكم من أحكامه إنه لا يمكن أن يتغيّر شكله بحسب الظروف المختلفة. فمثلا قد أوصانا الإسلام بالصلاة بكل تأكيد، ولكنه لو أُغميَ على أحد فلا صلاة عليه، ولو جُنّ أحد فلا صلاة عليه، وليس هذا فحسب بل سيكون في صلاةٍ عند الله تعالى في فترة جنونه كلها، وسينال ثواب المصلي. باختصار، ليس هناك معضلة إلا وقد قدّم الإسلام حلاً لها. لا شك أنه قد أمر بالحضور في المسجد للصلاة، ولكنه أوضح لنا أنه يجوز لكم أن تصلّوا في البيت إذا لم يكن هناك مسجد، وأن تصلّوا على قطعة من الأرض إذا لم يكن هناك مكان خاص للعبادة، وأن تتيمّموا إذا لم تستطيعوا الوضوء. ثم إنه لم يضع أية شروط لإمام الصلاة غير التقوى. بينما نجد عند النصارى شروطًا عديدة من أجل العبادة القصيرة الأسبوعية، إذ لا بد لهم أن يذهبوا إلى الكنيسة، ولا بد أن يؤمّهم قسيس في العبادة، ولا بد أن يكون القسيس حائزًا على شهادة دينية معينة، وأن يلبس بدلة سوداء. فما علاقة البدلة السوداء بالعبادة يا ترى؟ وما علاقة الشهادة الدينية بالعبادة؟ ومع ذلك نرى فعليا أن المسيحية قد فرضت مثل هذه الشروط من أجل

العبادة. وعلى النقيض كم سهّل الله علينا نحن المسلمين؛ إذ لم يضع علينا أي قيود ولا شروط كهذه من أجل العبادة، بل سمح لنا بعبادته في أي مكان.

إذن، فرغم أن بعض أحكام القرآن الكريم تبدو صعبة في الظاهر، إلا أن الله تعالى قد جعلها سهلةً للعمل بها ببيان حكمها، كما جعلها مَرِنةً بحيث تتغير أشكالها عند الحاجة، ويستطيع صاحب أي فطرة العملَ بها بسهولة. وهذا أحد أسباب حفظ القرآن وإقامة الإسلام إلى يوم القيامة.

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾

شرح الكلمات:

الذكرى: الذكرى معناه النصيحةُ والنصحُ حيث ورد: الذكرى اسمٌ للإذكار والتذكير. والذكرى: هو الذكرُ باللسان أو بالقلب. (الأقرب)

التفسير: أي لقد أعطيناك شرعًا كاملا أبديا محفوظا إلى يوم القيامة، فمن واجبك الآن أن تنصح الناس فإن النصح ينفعهم دومًا.

هناك إشكال حول معنى هذه الآية، وهو أنَّ ﴿إِنْ﴾ شرطية، وعليه فالآية تعني في الظاهر: عليك أن تَعِظَ الناس إنْ كان الوعظ ينفعهم. وهنا يثار اعتراض: كيف يعرف الواعظ أن نصحه سيكون نافعًا، إذ لا يُعرف نفع النصح أو عدمه إلا بعد القيام به لا قبله؟ ودرْءًا لهذا الإشكال قد فسّر البعض هذه الآية كالآتي: عليك بوعظ الناس وإذا لم ترَ فائدة فكُفَّ عن وعظهم. (البحر المحيط، تفسير سورة الأعلى)

ولا بد لنا لمعرفة مدى صحة هذا المعنى من أن ننظر إلى عمل الرسول ﷺ وسنته، فيما إذا كان يعظ الناس وينصحهم باستمرار، أم أنه كان يكفّ عن وعظهم إذا رأى أنه لا يجدي شيئا.

هذه السورة مكية إذ نـــزلت في الفترة المبكرة من النبوة، ولكنا نرى أن الرسول ﷺ ظل بعد نـــزول هذه الآية يعظ أهل مكة وينصحهم ١٣ سنة على التوالي ولم يترك وعظهم يومًا واحدًا. إذا كان الله تعالى يأمر النبي ﷺ هنا أن عليك

يا محمد أن تنصح ما دام النصح ناجعًا، ثم كُفَّ عنه إذا لم تره نافعًا، فهذا يعني أن الرسول ﷺ لم يعمل بحكم الله هذا – والعياذ بالله –إذ استمر في وعظهم مع أنه رأى أن نصحه لا يجدي شيئًا. ثم إننا نرى الرسول ﷺ لم يدخر وسعًا ليُدخل اليهود في الإسلام، فظل يعظهم مرة تلو مرة، وينصحهم مرة تلو أخرى، ولم يكفّ عن وعظهم بحجة أن وعظه لا يجديهم، فلا حاجة لبذل السعي في نصحهم. فثبت من هنا أن قوله تعالى﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ لا يعني أبدًا أن عليك أن تعظ الإنسان مرة واحدة، ثم تكفّ عن الوعظ إذا رأيت أنه لا ينتصح بنصحك، شأن بعض العجائز عندنا إذا نصحن أحدًا ولم ينتصح قلن له: اذهبْ إلى الجحيم! كلا، بل كان عمل رسول الله ﷺ على عكس ذلك، فلا مبرر لقبول هذا المعنى.

لا شك أننا أُمرنا بترك مجالس المستهزئين بالدين، ولكن هذا ليس لأنهم لا يقبلون النصح، وإنما سببه أنهم يسخرون من الدين ويهتكون شعائر الله؛ أما الشرفاء فنحن مأمورون بتبليغهم باستمرار دونما انقطاع.

وقد قال بعض المفسرين أن ﴿إِنْ﴾ هنا شرطية، ولكنها جاءت توبيخًا وزجرًا للمكذّبين، أي لتُبين أن الكافرين متعنّتون جدا، فلا يقبلون النصح إلا قليلا، مصرين على العناد. إذن، لم ترِد ﴿إِنْ﴾ هنا للمنع من النصيحة، بل لبيان تحجُّر مَن تُقدّم إليهم النصيحة. وهذا المعنى مطابق لأساليب العربية ويزيل الإشكال أيضا.

وقد قدّم بعض النحويين تأويلا آخر وهو أن ﴿إِنْ﴾ هنا بمعنى (إذ)، كقوله تعالى ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٤٠)، فليس المراد هنا أنكم ستصبحون غالبين شريطة أن تكونوا مؤمنين، إذ قد سبق أن اعتبرهم الله تعالى مؤمنين، بل المراد: وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إذْ كنتم مؤمنين، أي حيث إنكم تؤمنون بالله ورسوله فكيف يمكن أن يغلبكم الكفار؟ لقد أنعم الله عليكم بنعمة الإيمان، فأنتم الغالبون على الكافرين. كذلك يقول الله تعالى هنا: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾.. أي حيث إن الذكرى تنفع حتمًا، فلا تكُفّ، يا محمد، عن تذكير الناس أبدا، بل ذَكِّرْهم ليل نهار، لأنه إذا لم تنشرح صدورهم اليوم فسوف تنشرح غدًا ويهتدون.

إذن، فلم يَنْهَ الله تعالى هنا عن الوعظ إذا لم يُجْدِ مرة أو مرتين، بل أمر بالاستمرار بالوعظ، لأنه يترك أثره على القلب يقينا.

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ ﴿١١﴾

التفسير: إن دراسة أحوال الإنسان تكشف أن حالة قلبه تتغير دائما، فتارة تستولي عليه الخشية، وأخرى تتلاشى منه، وحينما تكون خشية الله مستولية عليه ويكون خاضعًا لجلال الله وهيبته، فإن النصح العادي أيضًا يترك في قلبه وقعًا كبيرًا، وإلا فلا ينفعه أي نصح مهما كان رائعا. وكل إنسان يمرّ بهذه التجربة في حياته، فأحيانًا يوعظ بأمر عشرات المرات، ولكن بدون جدوى، وأحيانًا يوعظ بشيء مرة، فيتأثر به فورا. وليس ذلك إلا لأن حالة قلب الإنسان تتغير دائما، فأحيانا تأتي عليه ساعة خشية الله، وأحيانا يخلو قلبه من خشيته. ولذلك أمر الله تعالى بالوعظ والنصح باستمرار مبينًا أنّ قلب الإنسان يمرّ بساعات من خشية الله، ولا يمكن أن يعلم الناصح متى تأتي على المستمع تلك الساعة، فينشرح صدره للهدى، فمن واجبه أن يواصل في نصحه ووعظه، لأنه لا يعرف موعد هدايته.

وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

يتجنَّبُها: تَجنَّبَه: بَعُدَ عنه. (الأقرب)

الأشقى: شَقِيَ الرجلُ يشقَى شَقًى وشَقاءً وشَقاوةً وشِقاوةً وشَقوةً وشِقوةً: كان شقيًّا؛ ضِدُّ سَعِدَ، فهو شَقِيٌّ، جمعُه أشقياء. (الأقرب)

وورد في المفردات: "السعادة في الأصل ضربان: سعادةٌ أُخْروية وسعادة دنيوية. ثم السعادة الدنيوية ثلاثةُ أضرب: سعادة نفسية، وبدنية، وخارجية. كذلك الشقاوة على هذه الأضرب. وفي الشقاوة الأخروية قال: ﴿فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ (طه:١٢٤)... وفي الدنيوية ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾(طه:١١٨).

قال بعضهم: قد يوضَع الشقاء موضعَ التعبِ، نحو: شَقَيْتُ في كذا. وكلُّ شقاوةٍ تعبٌ، وليس كلُّ تعبٍ شقاوةً، فالتعب أعمُّ من الشقاوة. (الأقرب)

المراد من السعادة النفسية أن يكون في نفس الإنسان صلاح وشَرَف، أما السعادة البدنية فتعني صحة الجسم وعدم المرض. أما السعادة الخارجية فتعني أن يتمتع أقارب الإنسان وأصدقاؤه بالطمأنينة والراحة ولا يتعرضون لأي ألَم، وأن تكون البلاد آمنة فهذا يضمن له الطمأنينة من الخارج؛ ذلك أنه لو كان مطمئنا في نفسه، وكان أقاربه في أذًى وأصدقاؤه في مصائب، وبلده في فوضى، فلن يتمتع بالراحة وسكينة القلب؛ وإذا كان أقاربه وأصدقاؤه في راحة، ولكنه يكون مريضًا، فلا ينعم بالسكينة أيضًا، إنما تكتمل سعادته إذا تيسرت له السعادة النفسية والبدنية والخارجية.

وقد جاء قوله تعالى ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ تحت ذكر الشقاوة الدنيوية لأن آدم عليه السلام كان نبي الله تعالى، فلا يمكن أن يصاب بشقاوة روحانية، وإنما بالشقاوة البدنية فقط.

أما القول: "كل شقاوة تعب، وليس كل تعب شقاوة، فالتعب أعم من الشقاوة" فذلك لأن الشقاوة فيها نوع من الخزي والإهانة، وهذا لا يوجد في التعب. فلو تعب الإنسان في عمل صالح فلا يسمى ذلك شقاوة، مثلا: إذا استيقظ المرء في آخر الليل وصلى التهجد ساعتين أو ثلاثا، فلا بد أن يصاب بالتعب، ولكن تعبه لا يسمى شقاوة، وإنما تطلق الشقاوة على تعب فيه شرّ.

فالأشقى مَن هو أشد شقاوةً.

التفسير: لقد بين الله تعالى من قبل أن على الإنسان مواصلة الوعظ والنصح، إذ تأتي على القلب أوقات خشية الله تعالى، فقد يكفر أحد اليوم ويؤمن غدا؛ أما هنا فقد بيّن الله تعالى أنكم إذا عملتم بما آمركم من مواصلة النصح فلن يُحرم الهدى إلا الأشقى الذي قرّر الله أن لا ينال الهدى نتيجة ذنوبه، وأما الآخرون فلا بد أن يؤمنوا، عاجلا أو آجلا.

وهنا ينشأ سؤال: لماذا استعمل الله تعالى هنا كلمة ﴿الأشقى﴾؟ والجواب (أولاً) أن رسول الله ﷺ أفضلُ الأنبياء قاطبة؛ فالكافر به أشدُّ شقاوة من منكري الأنبياء الآخرين. إن منكري موسى وعيسى وإبراهيم وداود وسليمان -عليهم السلام- أشقياء فحسب، أما منكر محمد رسول الله ﷺ فهو الأشقى لأنه ﷺ أفضل الأنبياء كلهم، وهديه أسمى من هديهم كلهم. و(ثانيا) هو كما ذكرتُ من قبل بأن ﴿الأشقى﴾ إشارة إلى أنه لا يُحرم من الهدى إلا أشد الناس شقاوة، أما الشقي العادي فينال الهدى عاجلا أو آجلا.

ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

يَصْلَى: صَلِيَ النارَ يَصلَى: قاسى حَرَّها واحترق بها ودخل فيها. (الأقرب)

التفسير: أي لأن هذا قد كفر بأكبر نبي، فلذلك يُدخَل في أكبر نار، أو المعنى: لأنه لم يؤمن رغم الوعظ المكرر والتبليغ الكافي التام، فيُلقى في النار الكبرى.

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٤﴾

التفسير: قال الله تعالى إنه ﴿لا يَمُوتُ فِيهَا﴾ لأنه حيّ، وقال ﴿وَلا يَحْيَا﴾ لأن الحياة هي ما فيها السكينة والراحة، ولكن هذا يكون في أذى شديد، فلا تسمى حياته حياة. شأنه شأن المصاب بمرض شديد، فعندما تسأله كيف حالك يقول: لستُ من الأحياء ولا من الأموات.. أي لم أُمتْ لأني على قيد الحياة، ولا أحيا لأن حياتي في أذى شديد. كذلك يقول الله تعالى﴿ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾.. أي أن العذاب يكون شديدا بحيث لن يموتوا فينجوا منه، ولن يطيقوه وهم أحياء، بل تكون حياتهم أسوأ من الموت.

هناك أمر لطيف جدير بالذكر هنا، وهو أن المسيحيين يعترضون عادة أن الرسول ﷺ قد قَتل أعداءه، فهذه الآية ردٌّ عليهم، إذ أنبأ الله تعالى فيها أن أعداء الإسلام الذين تروهم اليوم سوف يُترَكون أحياء لكي يموتوا كمدًا برؤية ازدهار الإسلام وفشلهم وشقائهم، وليعلموا أنهم كانوا في ضلال، أما لو قتلهم المسلمون لما تحققت هذه النبوءة. هذه السورة من أوائل السور المكية، وهكذا فكأن الله تعالى قد أخبر فيها المسلمين في أوائل الإسلام أنكم ستلقون معارضة شديدة، ولكن لا تقتلوا من أعدائكم إلا الذي يبدأ بالهجوم عليكم، لأننا سنكتب للإسلام من الغلبة والعظمة ما يجعل كل لحظة من حياة الأعداء أسوأ من الموت، فاتركوهم أحياء لكي يروا شوكة الإسلام وخيبة أملهم، فيذلوا ويخزوا ويموتوا كمدًا وحسرة.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٥﴾

شرح الكلمات:

أفلحَ: أفلح الرجلُ: فازَ وظفِر بما طلَب. أفلحَ زيدٌ: نجَح في سعيه وأصاب في عمله. (الأقرب).

الفلاح نجاحٌ يغبط به الآخرون حيث ورد: "ليس في كلام العرب كلِّه أَجمعُ مِن لفظَةِ الفلاحِ لخيرَيِ الدُّنيا والآخرة كما قاله أئمّةُ اللِّسَان." (تاج العروس)

تزكّى: صار زكيًّا. (الأقرب)

التفسير: أي لقد فاز بمطلبه مَن تجنّبَ أهواء النفس وتسربلَ بالقداسة والطهارة، لأن الله قُدّوس فلا يحظى بقربه إلا الذي فيه القداسة والطهر. إن الذين يعيشون عيشة آثمة، ويلقون أحكام الله وراء ظهورهم، ويتبعون خطوات الشيطان وأهواء النفس، فيلقون الخزي في الدنيا وفي الآخرة، لأن أصل كل نجاح هو الطهارة.

وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٦﴾

التفسير: قوله تعالى ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ لا يعني أن يردّد المرء اسم الله بلسانه فقط فيقول: الحمد لله، أو سبحان الله، أو الله أكبر.. أو أن يقول "الله الله" كما يفعل اليوم بعض الذين هم مسلمون بالاسم ويجهلون أهمية ذكر الله وطُرُقَه؛ بل المراد من قوله تعالى أن يتذكر الإنسان ربه في كل حين، ذلك لأن الله تعالى قال أولاً ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ ثم قال ﴿ فَصَلَّى﴾، مما يؤكد أن الذكر لا يعني هنا ترديد بعض الكلمات، بل المراد منه ذلك الذكر الذي بسببه يقوم المرء بأداء الصلاة. لو كان المراد هنا ذكر الله باللسان فقط، فمثل هذا الذكر موجود في الصلاة، فما كان هناك داع لذكره منفصلا، ولكن الله تعالى قال ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ ثم قال ﴿فَصَلَّى﴾، مما يدل على أن المراد من الذكر هنا ذلك الذي يساعد المرء على أداء الصلاة.. بمعنى أن حُبّ الله تعالى يستولي على قلبه استيلاء شديدا، فيقف أمامه قلقًا ويشتغل بعبادته، فتشتعل شعلة حبه تعالى في قلبه، فيخرّ ساجدًا على عتبة حبيبه في حالة من الوَجد والهيام. إن ذكر الله يصبح غذاءه، وتتجدد ذكرياته في قلبه مرة بعد أخرى، فتدفعه لعبادته تعالى، فيؤدي حق ما يجد في نفسه من مشاعر تجاهه. إذن، فليس المراد من الذكر هنا ترديد بعض الكلمات باللسان فحسب، بل هو إشارة إلى تلك الحالة العَملية التي تدل على حب المرء لربه مما يدفع إلى الصلاة والعبادة.

بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٧﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٨﴾

شرح الكلمات:

تُؤْثِرُونَ: آثَرَ الشيءَ: اختارَه؛ فضَّله. (الأقرب)

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا سبب عداوة أعداء الإسلام أنهم لا يعارضون المسلمين بدافع خير، ذلك أن المسلمين يحبّون الله تعالى ويعبدونه، أما هؤلاء فيؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، فيعادون المسلمين إذ يرونهم عائقا في طريقهم،

ولا يدرون لجهلهم أن الحياة الدنيا فانية، وأن حياة الآخرة هي الباقية الخالدة. وحيث إنهم لا يؤمنون بالآخرة ويتهافتون على الحياة الدنيا، فيعارضون المسلمين.

إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٩﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿٢٠﴾

التفسير: أي أن ما أخبرناكم ليس أمرًا مفترَضًا ومفترًى، بل إن خبره موجود في الصحف الأولى. وبالفعل تكشف لنا مُطالعة صحف إبراهيم وموسى -عليهما السلام- أن فيها أنباء عن نـــزول القول الفصل وبعثة نبي عظيم يأتي بشريعة كاملة. فوجود هذه الأنباء فيها لدليل على أن الدنيا كانت بحاجة إلى نزول هذا الكتاب رغم وجود الصحف الأولى، ولذلك أدلى الأنبياء السابقون بهذه النبوءة، وإلا فما الداعي أن يخبروا ببعثة نبي ونـــزول كتاب بعدهم؟

إن نبوءة بعثة النبي ﷺ الواردة في صحف إبراهيم عليه السلام قد نقلها القرآن نفسه وأخبر أنه دعا ربه قائلا: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٣٠).. لو كانت صحف إبراهيم عليه السلام هي القول الفصل لما دعا بهذا الدعاء، فدعاؤه يدل دلالة واضحة على أن شريعته كانت ستنمحي وتُنسخ، سواء كان عاملاً بشريعة نوح عليه السلام كما يثبت من قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات:٨٤)، أم كانت له شريعة خاصة تحوي صحفه التي فيها إلهاماته ووحيه. فلو لم تكن شريعته لتُنسَخ وتُمحى فلماذا دعا بهذا الدعاء؟

وهذا هو الحال بالنسبة لموسى عليه السلام أيضا، إذ توجد في كتابه التوراة حتى اليوم نبوءة صريحة كالآتي: "أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ." (التثنية ١٨: ١٨-١٩)

كذلك ورد في مكان آخر فيها: "جاء الربُّ من سِيناء، وأَشرقَ لهم مِن سَعيرَ، وتلألأَ من جبل فاران،* وأتى مع عشرة آلاف قُدّوسي، وعن يمينه نارُ شريعة لهم" (التثنية ٣٣: ١-٣).

وهكذا أنبأ موسى عليه السلام عن مجيء نبي حامل شريعة جديدة بعده، وأخبر أنه لن يأتي من بني إسرائيل، بل من إخوانهم بني إسماعيل.

إذن، إن إبراهيم عليه السلام ينبئ بمجيء نبي تشريعي بعده، وموسى عليه السلام أيضا ينبئ ببعثة نبي تشريعي بعده، مما يبين بوضوح أن الشرائع السابقة لم تكن القول الفصل، كما ظل أنبياء كثيرون ينبئون عنه واحدًا بعد آخر. وتوجد في التوراة نبوءات عديدة أخرى كهذه، وكلها تبين أن العالم كان يوعَد بنـــزول القول الفصل منذ مدة طويلة، فكان لزامًا أن يتحقق هذا الوعد الإلهي الآن.

كما قلت إن نبوءة موسى عليه السلام هذه لا تزال حتى اليوم كما هي في التوراة، ولكن نبوءة إبراهيم عليه السلام لم تُذكَر في التوراة بوضوح، وإنما ذكرها القرآن فقط، غير أن الدليل على صدق دعوى القرآن هو أن القرآن قد ذكر هذه النبوءة الإبراهيمية أمام أهل مكة وأعلن متحديًا أن نبوءة نـــزول القرآن موجودة في صحف إبراهيم وموسى، فلم ينكرها أحد من الكافرين، ولم يقولوا ولا مرة واحدة: إنك كاذب، إذ لا توجد هذه النبوءة في صحف إبراهيم، مما يدل أن مئات الآلاف من الناس كانوا على علم بأن إبراهيم عليه السلام قد أنبأ ببعثة نبي تشريعي بعده، وهذا هو السبب وراء صمت الكافرين عند سماع إعلان القرآن هذا، وإلا فكيف سكت هؤلاء الذين اعترضوا على كل صغيرة وكبيرة عند هذا الإعلان الهام؟ لقد سجل القرآن الكريم اعتراضات عديدة للكافرين، ولكن لم يذكر فيه أن الكافرين

* علمًا أن فاران هي جبال مكة، التي جاء النبي ﷺ لفتحها بعشرة آلاف قدوسي من صـــحابته. ولقد حرّفوا الآن الكلمات التي تحتها الخط في بعض الطبعات الحديثة خاصة العربيـــة منـــها إلى: "وأتى مِن رِبْوات القُدس"، ولكنها لا تزال كما هي في بعض الطبعات القديمة باللغتين الأرديـــة والإنجليزية. (المترجم)

قالوا إن هذه النبوءة قد نُسبت إلى إبراهيم خطأً وافتراءً؛ فإنه لم يُدْلِ بأي نبوءة تخبر عن نـــزول القرآن أو بعثة نبي تشريعي بعده. فثبت أن هذه النبوءات كانت شائعة بين العرب على نطاق واسع، وكانوا يأملون أن يظهر الآن حتمًا مبعوث بحسبها، بل قد ورد في الروايات أن بعض العرب أخذوا يسمّون أولادهم باسم محمد، لأنهم كانوا يعلمون من نبوءات التوراة أن النبي القادم سيأتي باسم محمد، فلعل ابنهم هذا يُبعث نبيًا موعودا ومصداقًا لهذه الأنباء. باختصار، كانت في قلوب العرب آمال حول ظهور النبي الموعود، وكانوا ينتظرون ظهوره طبقًا لهذه الأنباء.